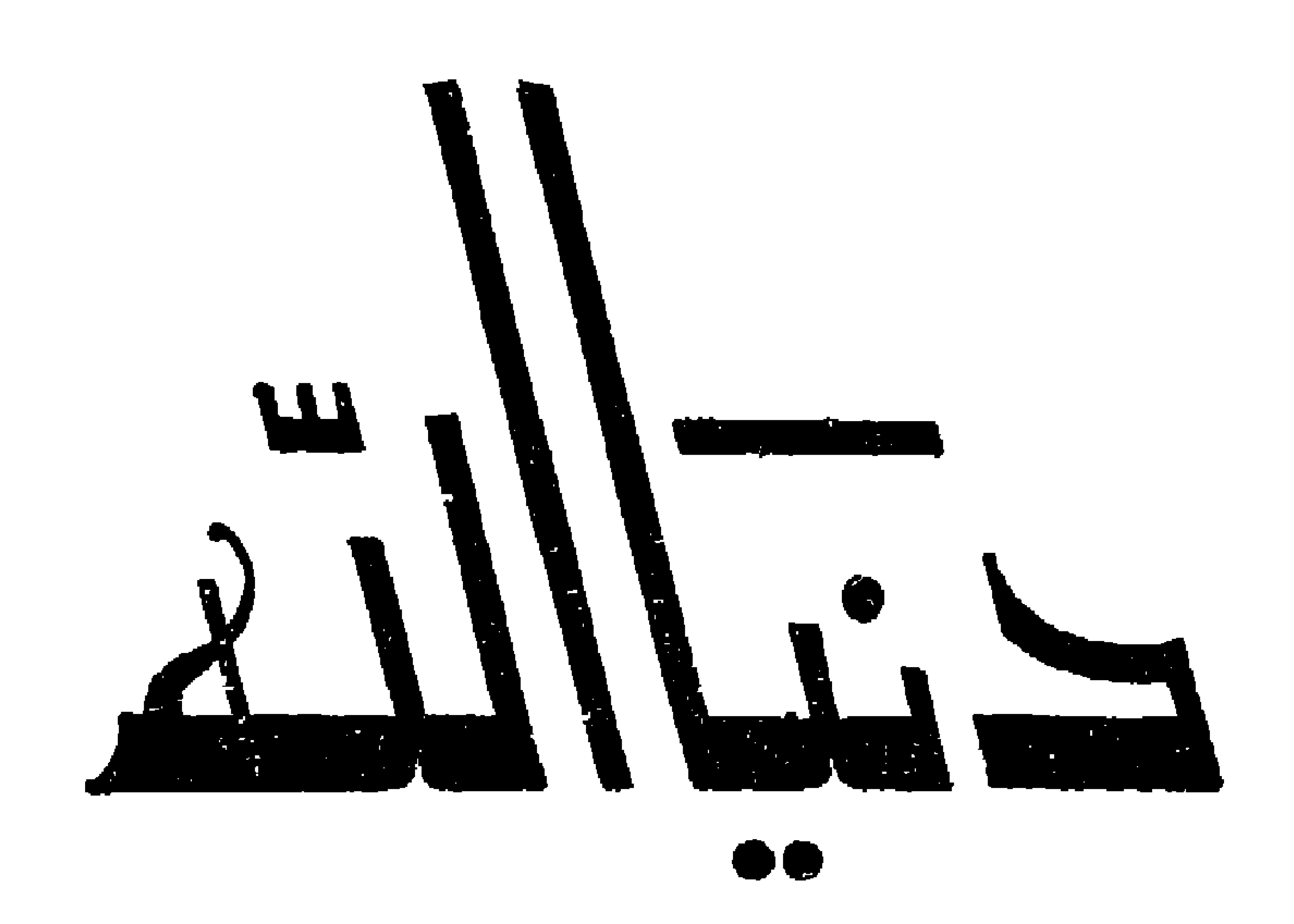

مكتبة مصر
دنيا الله
نجيب محفوظ


دنيا الله

نجيب محفوظ




الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

# دنيا الله

دبت الحيـــاة فى ادارة السكرتارية بدخول عم ابراهيم الفراش . فتح النوافذ واحدة بعد أخرى ، ومضى يكنس أرض الحجرة الواسعة بلب شارد ودون اكتراث . واهتز رأسه بانتظام وبطء ، وتحرك شدقاه كأنما يلوك شيئا ، فقلقت تبعا لذلك منابت الشعر الأبيض فى ذقنه وعارضيه ، أما صلعته فلم تكن بها شعرة واحدة . وعاد الى المكاتب ينفض عنها الغبار ويرتب الملفات والأدوات ، ثم ألقى على الحجرة ــ الادارة ــ نظرة شاملة ، ثم نقل بصره بين المكاتب وكأنما يرى شخوص أصحابها ، فلاح الارتياح فى وجهه حينا والامتعاض حينا ومرة ابتسم ، ثم ذهب وهو يقول لنفسه : « الآن نذهب لاحضار الفطور » .

وكان السيد أحمد كاتب المحفوظات أول من حضر ، جاء بكاهل ينوء بخمسين عاما ووجه نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنه سجل لقرف الزمن . وتبعه السيد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة ، الذى يضحك كثيرا لكنه ضحك متوتر يدارى به همومه اليومية . ثم جاء سمير أو الرجل الغامض كما يدعى فى الادارة ، والجندى الذى ينم تطلق أساريره على أنه لم يخرج بعد من نعمة الطفولة . ودخل يتبختر السيد مصطفى ، أنيقا ذهبى الخاتم والساعة ودبوس الكرافتة ، ولحق به حمام رقيقا نحيفا منطويا على نفسه . وأخيرا حضر سيادة مدير الادارة ، الأســتاذ كامل ، محوطا بهـــالة من وقار ، وفى يده مسبحة .

وضجت الادارة بالأصوات وخشخشة الأوراق ولكن أحدا لم يشرع فى عمل ، حتى المدير انهمك فى مكالمة تليفونية ، وانطلقت صفحات الجرائد فى الجـو كالأعلام . وقال لطفى وهو يتابع الأخبار بعينيه :

ــ ستكون السنة نهاية العالم ..

وعلا صوت المدير وهو يقول متهللا فى التليفون :

ــ وهل يخفى القمر ؟

وتساءل سمير :

ــ لماذا نشقى بالزواج والأبناء ، ها هو شاب يقتل أباه تحت بصر أمه !

كذلك تساءل أحمد بصوت متحشرج :

ــ ما فائدة كتابة روشـتة اذا كان الدواء غير موجـود بالسوق !

ولبث الجندى يرمى ببصره من مجلسه الى عيادة دكتور فى العمارة المواجهة ، يرصد ظهور ممرضة ألمانية شقراء فى النافذة .. ثم عاد لطفى يقول مؤكدا :

ــ صدقونى ، نهاية العالم أقرب مما تتصورون ..

ووضع المدير يده على السماعة وقال لحمام آمرا :

ــ جهز الملف $\frac{١ - ٣}{١٣٠}$ عام ..

ثم عاد الى المحادثة الشائقة فلم يرفع حمام رأسه عن الجريدة وهمس بين أسنانه « داهية فى أمك ! » . واذا بعم ابراهيم يعود

بصينية ممتلئة . وراح يوزع سندوتشات الفول والطعمية والجبن والحلاوة الطحينية . وطحنت الأفواه الطعام وتجاوب التمطق فى الأركان ولم تتحول الأعين عن أعمـدة الصحف . ووقف عم ابراهيم عند مدخل الادارة يرقب الآكلين بنظرة غريبة من عينيه الذابلتين حتى هتف به أحمد بصوت يعترضه الطعام :

— كشف الماهيات يا عم ابراهيم .

فذهب الرجل . وبعد ساعة من الوقت دخل الحجرة بائع الكرافتات والروائح العطرية الذى يزور الادارة عادة فى أول الشهر . ومر بالمكاتب عارضا بضاعته فأقبل الموظفون يتفحصونها وأخذ بعضهم ما يحتاجه منها ، وغادر الرجل الحجرة على أن يعود اليها بعد قبض الماهيـات . وبعد ساعة أخرى جاء بياع السمن ليجمع الأقساط المستحقة ، ولكن مصطفى قال له بلهجة ذات معنى وهو يضحك :

— انتظر حتى يرجع عم ابراهيم ..

فوقف الرجل عند الباب وشفتاه تتحركان بتلاوة مستمرة . وكانت الآلة الكاتبة تنقر بنشـاط ، على حين انتقل سمير الى مكتب المدير ليعرض أوراقا هامة ، ودخلت الشمس لأول مرة من النافذة المطلة على الميدان ، وما زال الجندى يختلس النظرات الى نافذة العيادة . ونادى المدير عم ابراهيم لأمر فذكره مصطفى بأنه لم يرجع بعد من الخزينة ، وعند ذلك تساءل أحمد رافعا رأسه عن الملفات :

— الرجل تأخر ! ، لماذا تأخر الرجل ؟ !

وذهب بياع السمن ليمر بالادارات الأخرىثم يعود . وهب أحمد الى خارج الحجرة ونظر يمنة ويسرة فى الطرقة ثم عاد وهو يقــول :

ـــ لا أثر له ، ماذا أخره ، الرجل المخرف !

ولما مرّت ساعة ثالثة فقد أحمد صبره فقام وهو يعلن بصوت مسموع أنه ذاهب الى الخزينة للبحث عن الرجل . ثم عاد بوجه طافح بالغيظ وهو يقول :

ـــ أخذ الكشف منذ ساعة كاملة ، فأين ذهب المجنــون ؟

فسأله لطفى :

ـــ هل قبض هو مرتبه ؟

فأجاب محتدا :

ـــ نعم ، قالوا لى ذلك عند شباك صرف الخدم السايرة ...

ـــ لعله ذهب يتسوق !

ـــ قبل أن يسلمنا الماهيات ؟ !

ـــ لا تستبعد ذلك ، انه يأتى كل يوم بجديد ...

وارتسم الاستياء على وجوه ، وقطب المدير ـــ وهو درجة رابعة قديم ـــ وساد صمت قصــير ما لبث أن قطعه مصطفى بضحكة من ضحكاته ثم قال :

ـــ تصوروا أنه سرق فى الطريق !

فندت ضحكات فاترة ، فاترة جدا ، كأنها تأوهات متنكرة ، غير أن لطفى قال :

ـــ أو وقع له حادث !

ولما آنس فى الوجوه استياء استدرك قائلا :

ــ ما يدوس عم ابراهيم اليوم فانما يدوس ادارة كاملة ..

فقال أحمد بحدة :

ــ الا من وراءه خزينة خاصة !

وارتاح الجميع الى قوله تشفيا غير أن المدير نقر على مكتبه بقلمه الباركر المهدى اليه فى مناسبة سعيدة ، داعيا الادارة الى ضبط النفس ، وكان فى الحقيقة يدارى قلقــه المتزايد . لكن الجندى تساءل رغم ذلك :

ــ ماذا يحدث للنقود فى هذه الأحوال ؟

ــ كحال السرقة ؟

ولم يضحك أحد فعاد الجندى يتساءل :

ــ فى حال الحوادث ؟

ــ قد تسرق فى الزحمــة ، وقد يتحفظ عليهــا فى قسم البوليس حتى تتضح الحقائق ، ومت يا حمار !

لكن بدا أن مملكة الضحك قد جدبت تماما . بدت الوجوه كالحة ومضى الوقت أثقل من المرض . وتساءل صوت « على وجه مَن أصــبحنا اليوم ؟! » . وذهب أحمد يبحث عن عم ابراهيم فى المراقبة كلها ثم عاد بوجه ناطق بخيبة مسعاه . وفكر المدير فى المشكلة الغريبة التى لم تدر لأحد فى بال . انه يأبى أن يصدق . سيظهر الرجل المجنون فجأة عند الباب . ستنهال عليه الشتائم وسينتحل كافة الأعذار . والا فما العمل ؟ . لطفى وراءه زوجة غنية ، وسمير وغد معروف ولكن ثمة مساكين مثل

أحمد قد يقضى عليهم الحادث . وعاد بياع السمن ، وقبل أن يفتح فاه صاح به المدير :

— انتظر ، القيامة لم تقم ، ونحن فى ادارة حكومية لا فى سوق ..

فتراجع الرجل مذهولا . وزار الادارة موظفون من المراقبة يستطلعون الأحوال ، وهمّ بعضهم بالمداعبة ولكنهم وجدوا جوا مكفهرا فتلاشت الدعابات فى حلوقهم . وتجسد القلق وكف الجميع عن العمل . وتأوه أحمد قائلا :

— قلبى يحدثنى بأن المسألة جد ! ، ضعنا يا جماعة ..

ثم هب واقفا وهو يقول : « سأسأل عنه بواب الوزارة » .

واختفى مهرولا . ثم عاد وهو يصيح بصوت ثائر :

— البواب يؤكد أنه رآه يغادر الوزارة حوالى التاسعة صباحا !

ثم بصوت مختنق :

— أفظع من كارثة ، لا يمكن أن يبيع حياته بمائة وخمسين جنيها أو مائتين ، حادث ؟ ! ، من يدرى ، هذا الشهر لن نعرف له نهاية يا رب السماوات !

وشعر لطفى بأن بعض الأنظار تتجه نحوه من حين لحين، فقال منقبض القلب :

— انها أفظع كارثة ، لعلكم تتساءلون ماذا يهمنى أنا ! ، والحق أن زوجتى الغنية لا تنفق مليما واحدا من مالها ..

وانصبت عليــه فى السر عشرات اللعنات ، ولم يعره أحد التفاتا . وتأوه أحمد قائلا :

ــ أتصدقون بالله ؟ ، والله الذى لا اله الا هو انى من اليوم الثانى فى الشهر أذهب وأجىء وليس فى جيبى مليم واحد ، لا قهوة ولا شــاى ولا سيجارة ولا اســتعمال لأى نوع من المواصلات ، أولاد فى الثانوى وأولاد فى الجامعة ، ودين كبير بسبب الأدوية ، وماذا يمكن أن أفعل يا اله الكون ؟ !

ولما جاوزت الســاعة الواحدة وقف مدير الادارة بوجه كئيب ، وابتعد عن مكتبه وهو يقول :

ــ لابد من ابلاغ المراقب العام .

واستمع المراقب العام الى القصــة فى امتعاض ظاهر ، ثم تساءل :

ــ ألا يجوز أن يرجع رغم الظنون ؟

ــ الحق انى يئست تماما من ذلك ، الساعة تدور فى الثانية ..

فقال المراقب العام بلهجة منتقدة :

ــ أنت تعلم أن تصرفكم خاطىء ومخالف للتعليمات ..

فانجحر المدير فى صمت يائس ثم تمتم :

ــ جميع الادارات تفعل ذلك ..

ــ ولو ! ، الخطأ لا يبرر الخطأ ، اكتب لى مذكرة لأرفعها لوكيل الوزارة ..

ولكن المدير لم يتحول عن موقفه وقال :

— الجميع فى أشــد الحاجة الى مرتباتهم ، هذه حالة لم تسبق بمثيل ..

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟

— نحن لم نتسلم المرتبات ولم نوقع فى الكشف ..

— لا يمكن انكار الواقعة ، ولا التهرب من المسئولية ..

وتكاثف الصمت وبدا المدير كرجل ضائع ، وضاق المراقب به فتشاغل بالنظر فى أوراق على مكتبه ، حتى تحول المدير عن موقفه ومضى نحو الباب فى خطوات ثقيلة جدا . وقبيل خروجه جاءه صوت المراقب وهو يقول فى جفاء :

— أبلغوا البوليس ..

انتقلت ادارة السكرتارية الى نقطة البــوليس . وشــقوا طريقهم الى حجرة الضابط بين نسوة جالســات القرفصــاء ، تتقدمهم شرذمة من رجال متعاركين مخضبين بالدماء يســوقهم عسكرى ، على حين تعــالى من وراء باب مغــلق صراخ أليم واستغاثات . وأفضى السيد كامل المدير الى الضابط بالحكاية من أولها الى آخرها . وقال عن عم ابراهيم انه فراش فى الخامسة والخمسين ، دخل خدمة الوزارة وهو فى العاشرة عاملا بالمطبعة ، ثم نقل فراشا لتطاوله على رئيسه ، وأجره الأصلى ستة جنيهات . وقال عنه موظفو السكرتارية انه كان طيبا وان يكن به شذوذ محتمل كأن يشرد أحيانا حتى وهو يحدثك أو يتدخل فيما لا يعنيه أو يتطوع بذكر ملاحظات عامة فى السياسة دون مناسبة ، وعن مسكنه قيل انه يقيم بالبيت رقم ١١١ بدرب الحلة ، ولم يسبق

له أن سرق أو أتى ما يستوجب الشك فى ذمته . وقال الضابط بعد تحرير المحضر ان النقطة ستتأكد أولا أنه ليس ضحية لحادث من الحوادث ثم يتخذ البحث مجراه . ولم يجد الموظفون بدا من الانصراف فغادروا النقطة كالمساطيل من الذهول . واختلطت أصواتهم وهم يتبادلون التشكى والتساؤل عما يمكن عمله ازاء مسئولياتهم الخطيرة التى تنتظرهم فى البيوت . وشملتهم رغبة واحدة فى أن يبقوا معا حتى يجدوا لمشكلتهم حــلا غير أنهم اضطروا فى النهاية الى التفرق فمضى كل الى حال سبيله . عاد مدير الادارة الى بيته ولا أمل له الا فى البوكر أو الكونكان . وقصد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة محل رهونات بباب الشعرية اعتاد فى الأزمات أن يقترض منه بربح فاحش . أما لطفى فكانت زوجته تتكفل بنفقات البيت ولكن كان عليه أن يبتدع حيلة ليأخذ منها مصروفه الشهرى . الجندى — وهو شــاب أعزب ويعيش فى كنف أبيه — قرر أن يقــول لوالده « تقبلنى هذا الشهر وكأنى ما زلت طالبا » . حمام كان عليه أن يقنع زوجته المشــتركة فى جمعية توفير من الجيران بالمطالبة بنصيبها المخصص للكساء لانفاقه فى البيت مهما كلفه ذلك من سباب وعراك وبكاء . سمير بدا أمره هينا نوعا ما ، فما أن خلا الى نفسه حتى قال : « لولا الرشوة لوجدت نفسى فى مأزق لا مخرج منه ! » . بقى أحمــد كاتب المحفوظات الذى ظن الزملاء أن النهار لن يطلع عليه . مضى يتخبط فى الطريق بلا أدنى وعى لما حوله من أناس ومركبات . ودخل مسكنه متأوها أزرق

الوجه فارتمى على أول مقعد وأغمض العينين . وأقبلت عليـه الولية برائحة المطبخ متسائلة فى انزعاج :

ـ مالك ؟

فقال دون مقدمات :

ـ لا مرتب لنا هذا الشهر !

فقالت بدهشة :

ـ لم كفى الله الشر ؟ ! ، عم ابراهيم جاء بمرتبك فى أول النهـار !

وثب الرجل قائما كغريق وجد آخر الأمر متنفسا على حين ذهبت الولية وجاءت بلفة من الأوراق المالية وجـد فيها مرتبه كاملا ! . استخفه الطرب لحد الجنون فبسـط يديه وهتف من الأعماق : « الله يكرمك يا عم ابراهيم .. الله يجبر بخاطرك يا عم ابراهيم » .

وكبس البوليس بيت عم ابراهيم بدرب الحلة . وكان المسكن عبارة عن حجرة أرضية بحوش بيت قديم تهدم سوره أو كاد . ولم يكن بالحجرة الا مرتبة متهرئة وحصيرة وكانون وحلة وطبق ساج وامرأة عجوز عوراء تبين أنها زوجته . ولما سئلت عن زوجها أجابت بأنه فى الوزارة ، ثم أكدت أنها لا تعرف شيئا عن اختفائه . ولم يكن له من ثياب الا جلباب ففتشوه فعثروا على قطعـة حشيش صـغيرة . وعادت القوة بالمرأة الى قسـم البوليس . وقالت المرأة انها لا تدرى شـيئا عن هربه أو عن السرقة المتهم بها . وبكت طويلا وانتهرت طويلا . وقالت عن

حياتهما المشتركة انه كان فى مطلع الحياة زوجا طيبا وأنهما أنجبا أبناء . من هؤلاء الأبناء عامل يعمل فى منطقة القنال منقطع الصلة بهم منذ سنوات . وآخر قتل فى حادثة ترام وهو فى العاشرة . وبنت تزوجت من عامل بناء ذهب بها الى أقصى الصعيد فاختفت من حياتهم كأخيها بالقنال . واعترفت بأن عم ابراهيم تغير تغيرا خطيرا فى حياته فى الأشهر الأخيرة ، وبعد أن بلغ أعقل العمر ، اذ ترامت اليها أنباء عن تعلقه ببائعة ناصيب عند قهوة فؤاد ، وأن تلك الأنباء سببت أكثر من عراك بينهما على مرأى من حارة الحلة كلها .

انقض المخبرون على قهوة فؤاد ثم رجعوا الى القسم بمجموعة غريبة من جامعى الأعقاب بين الطفولة والمراهقة ، كما جاءوا ببعض ماسحى الأحذية . وتذكروا جميعا عم ابراهيم عند سماع أوصافه . قالوا انه كان يجلس فى الأشهر الأخيرة فى آخر كرسى فى الممر المتفرع عن الطريق العام ، يحتسى القهوة ويرنو الى الانجليزية ! وتبين أنهم يعنون بالانجليزية بائعة ناصيب فى السابعة عشرة ذات خصلات ذهبية وعينين زرقاوين ، كانت فى الأصل جامعة أعقاب كذلك . واعترفوا جميعا على وجه التقريب بأنهم كانوا على علاقات خاصة بها . وأن ذلك كان كذلك حتى مع بعض رواد القهوة من ذوى النفوس الحلوة المتواضعة ! . وكان عم ابراهيم شديد الاهتمام بها . رآها مرة وهو عابر سبيل . ولما أدرك أنها من معالم قهوة فؤاد اتخذ مجلسه فى نهاية الممر لمشاهدتها كل مساء . وكان يدعوها ليبتاع ورقة ناصيب

فى الظاهر ، وليبقيها أطول مدة ممكنة معه فى حقيقــة الأمر . وفطنت الفتاة من أول الأمر الى ولعه بها فأفشت سره اليهم ، فراحوا يتجسسون عليه يوما بعد يوم متخذين اياه مزحة ودعابة وهو غافل عنهم بهيــامه . ويوما أخبرتهم بأن الرجل يرغب فى الزواج منها ! . وأنه يعدها بحياة سعيدة خالية من هموم العناء والتشرد . وضحكوا طويلا . اعتدوها نكتة لأن فكرة الزواج لا تطرق لهم بالا من ناحية ، ولأن الرجل أبعــد ما يكون عن صورة العريس كما يتخيلونها من ناحية أخرى . وقال أحدهم ساخرا :

— انه يبدو كأحدنا !

فقالت بتيه :

— بل هو رجل غنى ..

وضحكوا كرة أخرى . لكن الفتاة انقطعت عن المجىء الى القهوة واختفت من مظانها جميعا !

وعلى العموم اطمأن البوليس الى أنه قبض على طرف الخيط . لكنه لم يكن يعلم أن الطرف الآخر فى أبو قير . أجل كان عم ابراهيم فى أبو قير . كان يجلس جلسة مريحــة على الشاطىء يراوح النظر بين البحر وبين ياسمينة التى تطايرت خصــلاتها الذهبية فى مهب النسائم . وبدا حليق الذقن مستور الصــلعة تحت طاقية بيضــاء كالحليب وعكست بشرته رواء . وارتدت ياسمينة فستانا أنيقا وتجلت نضارتها كالماء المقطر . جلســة عائلية سعيدة مريحة راضية وان لم يخل هواء أبريل من لسعة

برد . والمكان شبه خال ، لا أحد من المصيفين جاء ، وأصحاب البيوت من اليونانيين بعيدون عن الشاطىء . والحب يرفرف راقصا حول الجلسة الجميلة . وتجلت فى عينى عم ابراهيم نظرة تشوف ودهشة كأنه يستقبل العالم لأول مرة فى طفولة بريئة . فما رأى بحرا من قبل ، بل انه لم يجاوز أعتاب القاهرة طيـــلة حيــاته ، لذلك بهره البحر المصطخب ، والســـاحل المترامى ، والسماء الملفعة بالسحب البيضاء فى صفاء الورد . ومضى يصغى الى الهدير المتقطع وهو يبتسم ابتسامة فرحة سعيدة لا تفارق شفتيه . بدا أنه انطلق من أغلال الهموم وأنه يحلق فى حلم ، وأنه يستمتع بأنغام الحب الشجية التى ترددها أعماقه النشوى ، أما الفتاة فتمددت أمامه فى استرخاء واكتنفها صمت راكد حتى ثقلت جفونهـــا بما يشى بالملل . وكان الســـيد لطفى الموظف بالسكرتارية هو الذى عرفه دون قصد بأبو قير . كان يصيف كل عام فى ذلك المصيف ويحكى عن جماله وهدوئه وأسماكه للزملاء قبل السفر وعقب العودة ، فامتلأ خيـــال عم ابراهيم بالمصيف ، ثم عرف أخيرا سبيله اليه . وجاءه مزودا بما يحتاجه شهر العســـل من ثياب وأدوات زينـــة وهدايا ولوازم المزاج والكيف . وكان يومه كله ينقضى بين الحجرة المفروشـــة التى اكتراها وبين الساحل ، لاشاغل له الا الحب والمشاهدة والتدخين والأكل والشرب والأحاديث . وأنفق فى أسبوع ما لم ينفقه من قبل فى عام ، ولم تكن المحبوبة تكف عن الطلب وما أسرع ماكان



يلبى طلباتها ، وكانت غريبة الأطوار فحتى الخمر والمخدرات طالبت بها . وكانت صريحة الى حد الايذاء فسألته مرة :

— من أين لك بالنقود ؟

فقال ضاحكا :

— أنا من الأعيان ..

فقالت بارتياب وقد ضربت الخمر وجنتيها :

— أنا فاهمة ..

— الله يسامحك .. !

وضحكت ضحكة بلهاء وهى تقول :

— ليس فى فيك الا أربع أسـنان ، واحدة فوق وثلاث تحت ..

وضحك متسامحا . ربما حام حوله كدر ولكنه كان مصمما على السعادة ، السعادة التى يدرك أكثر من غيره كم هى زائلة . لم يكن يطمع فى أكثر من الاحتفاظ بما نال من سعادة إلى حين ، وألا يقع القبض عليه قبل أن تنهار دعائم سعادته انهيارها الطبيعى باتفاق آخر مليم مما يملك . لذلك أصر على السعادة رغم ما يبدو من محبوبته من مشاكسة . وتاقت نفسها الى رؤية الاسكندرية لكنه رفض باصرار فعادت تقول بمكر موروث عن الأرصفة :

— قلت لك انى فاهمة !

فكان جوابه أن ابتاع لها حلية لطيفة . ووضع بين يديها

فاكهة وشرابا وسجائر محرمة ، وقبل خدها المتورد وابتسم لها في حنان قائلا :

— انظرى الى البحر والسماء ، واسعدى بما بين يديك ، وليكن ريقك شهدا ..

أراد لها أن تسعد كما يسعد . وكان من قبل يسير مطرق الرأس لا يرى من الدنيا الا التراب والطين . أو لا يرى الا شواغله وهمومه . أما هنا فرأى ما لم يكن يراه . رأى الفجر في طلعته السحرية والغروب في عجائب ألوانه التى تنساب عن الشفق . ورأى النجوم الساهرة والقمر الساطع والآفاق اللامتناهية . رأى ذلك كله بقوة الحب الخالقة حتى عجب كيف يوجد بعد ذلك النكد ..

وفى أوائل يونية ظهرت على الساحل أول أسرة جاءت مبكرة للتصييف فانقبض قلب عم ابراهيم وشعر بدنو الشقاء كالأجل . ستولى السعادة قريبا والى الأبد . وزاده ذلك اصرارا على السعادة المتاحة فأشعل سجائره تباعا . ويوما كان عند البقال فلمح فى آخر الطريق السيد لطفى الموظف بالسكرتارية بصحبة سمسار من سماسرة المساكن . سقط قلبه خوفا فمضى مسرعا الى عطفة جانبية ، ثم تسلل منها الى حجرته . جاء لطفى ليؤجر مسكنا لشهرى يولية وأغسطس كعادته كل صيف . وما هى الا أسابيع حتى يجوب الشاطىء بالطول والعرض ولا يبقى له هو مكان . ان يد الخيبة تطرق بابه ولن يجد له مكانا . سينقضى الحلم مثل هذه السحابة المسرعة . وستغادره محبوبته كزفيره ـ

محبوبته التى يحبها رغم تململها وحدتها ولسانها المقلقل . أجل يحبها ، ويشكر لها ما وهبته من سعادة ونفخت فيه من روح الشباب . فليسامحها الله وليسعدها الله . ووجد نفسه فى حجرته منفردا فراح يعد ما تبقى من النقود ثم لفها حول صدره . وسمع حركة عند الباب فالتفت نحوه فرآها قادمة . تساءل ترى هل رأته ؟ . وقرأ فى عينيها نظرة ماكرة . لذلك طار النوم من عينيه عندما استلقى الى جانبها على الفراش . ومضى الليل فى أرق وفكر . وسمع صوتا حنونا فى أعماقه يقول له : « أوهبها النقود وسرّحها » . فقال له : « لم تزل لى أيام » . فقال له : « أوهبها النقود وسرّحها » . الطفلة الجميلة المشردة ! . من أبوها .. من أمها ؟ . قالت له مرة بكل بساطة :

— لا أحد لى فى الدنيا ..

كذلك هو ! . وأحس بشىء يلمسه كثعبان فى الظلام . تركز احساسه فى يدها المتلصصة . تسعى الى سرقته ! . ألذلك بالغت فى انهاكه الماكرة حتى يغرق فى النوم ! يا للتعاسة ! . وقبض على يدها . ندت عنها شهقة فى الظلام ثم ساد الصمت . وتساءل بحزن :

— لم ؟

ثم معاتبا :

— متى رفضت لك طلبا ؟

وهوت على يده فعضتها بوحشية حتى تأوه ودفعها بقوة . كانت أول حركة قاســية تبدر منه نحوها . ووثب الى مفتاح

الكهرباء فأضاء الحجرة . نظر أول ما نظر الى معصمه الملطخ بالدم، وقال :

ــ صغيرة وبك هذا الشر كله !

رمقته بنظرة مستخزية لحظة ثم ولته ظهرها . وتساءل

ــ كيف تسعين الى سرقة مالك ؟

فقطبت تقطيبة نمت عن حنق وضيق لكنها لم تنبس فعاد يقول :

ــ لا مطمع لى فى أكثر مما نلت ..

وضحك ضحكة مريرة وقال :

ــ ليجزك الله عنى خير الجزاء ..

وفى الصباح أعطاها أكثر ما تبقى لديه من مال وحزم متاعها ووصلها الى المحطة .

ومن ثم أقفرت أبو قير . وتغير الحال رويدا وتقاطر المصيفون . وانتقل الى الاسكندرية ليهيم على وجهه دون مبالاة . ومرة وجد نفسه أمام جامع أبى العباس فدخل . صلى ركعتين تحية للمسجد ثم جلس موليا وجهه نحو الجدار . كان يعانى حزنا جليلا ويأسا رائعا . وناجى ربه همسا : « لا يمكن أن يرضيك ما حصل لى . ولا ما يحصل فى كل مكان . صغيرة وجميلة وشريرة أيرضيك هذا ! . وأبنائى أين هم .. أيرضيك هذا ؟ . والعالم يطاردنى لا لشىء الا أننى أحبك فهل يرضيك هذا ؟ . وأشعر وأنا بين الملايين بوحدة قاتلة .. أيرضيك هذا ؟ . » . وأجهش فى البكاء . ولما أخذ يبتعد عن الجامع فاجأه

صوت ينـادى : « عم ابراهيم ! » فالتفت مندهشا بلا ارادة فرأى جبارا يتقدم منه فى ظفر وتشف فأدرك من منظره أنه مخبر فتوقف مستسلما . قبض الرجل على منكبه وهو يقول :

ـــ أتعبتنا فى البحث عنك الله يتعبك ..

ولما وجده ـــ وهو يسوقه أمامه ـــ مستسلما محمر العينين قال :

ـــ تقدر تقول لى ماذا دفعك الى تلك الفعلة وأنت فى هذا العمر ؟ !

ابتسم عم ابراهيم ، ثم رفع أصبعه الى فوق وهو يغمغم :

ـــ الله ..

ندت عنه كالتنهدة ..

# جوار اللہ

دق جرس الباب الخارجى ففتحت الخادم الشراعة فرأت رجلا يرتدى جلبابا ، عارى الرأس ، غريب الوجه ، كانت بلا ريب تراه لأول مرة ، فطالعته بنظرة متسائلة ، واذا به يسأل :

ـ بيت سى عبد العظيم شلبى الموظف بالمساحة ؟

وجاء عبد العظيم على صــوت الرجل ، متمهل المشية فى جلبابه الفضفاض ، مغطى الرأس بطاقية اتقاء للبرد ، فنظر الى القادم باستطلاع كما فعلت الخادم من قبل ثم سأله عما يريد ، فقال الرجل :

ـ لا مؤاخذة . أرسلنى الحاج مصطفى الدرديرى السمسار بالدرب الأحمر لأخبرك بأن الست عمتكم مريضة جدا ويلزم الحضور ..

فانفعل عبد العظيم باهتمام شديد وتساءل :

ـ ماذا حصل لها ؟

ـ لا أعرف يا سـيدى ، وأنا قلت لحضرتك ما كلفنى به الحاج ...

ودعاه الي الدخول من قبيل المجاملة فشكر وذهب . وتحول عبد العظيم الى الداخل فوجد أخته نفيدة واقفة تنصت فقال لها :

ـ استعدى للذهاب الى بيت عمتك نظيرة ، الظاهر أنها ستودع ...

وعبد العظيم يقيم فى هذا البيت بشارع شبين الكوم بحدائق

القبة هو وزوجته وأولاده الخمسة وأخته الكبرى تفيده وهى عانس فى الخمسين وكان والده فى الأصل من الدرب الأحمر ولكنه انتقل الى حدائق القبة منذ أربعين عاما وعبد العظيم طفل فى الخامسة . وانقطعت الأسباب رويدا بين الدرب الأحمر وحدائق القبة فيما عدا زيارات الست نظيرة لهم من حين لآخر . وهى فى الحقيقة عمة أبيه لا عمته هو ، وفى الثمانين من عمرها ، عانس مثل تفيدة ، تعيش وحيدة ، وتملك بيتا مكونا من أربعة أدوار ، عرفت بغرابة الأطوار وحدة الطبع . واكتظ رأس عبد العظيم بذكريات قديمة عما كان يدور فى بيته حول ثروة عمة أبيه ، وانصهر ذلك كله لحد الاحتراق فى خياله بنهم رجل لم يمارس طيلة حياته أى نوع من أنواع الامتلاك . رجل طال به الأمد فى الدرجة الخامسة ، وتقوس ظهره تحت أعباء الواجبات ، ولم يورثه أبوه الا عبئا ثقيلا هو أخته تفيدة . ودأبت الست نظيرة على زيارتهم حتى تجرأ يوما على أن يطلب منها قرضا صغيرا فانقطعت عن زيارتهم . عجوز وبخيلة !. تمتلك بيتا من أربعةأدوار ايراده الشهرى لا يقل عن عشرة جنيهات . لكنها وحيدة رغم أنها تعيش فى بيئة أهلها القديمة . ومقيمة فى حجرة وحيدة فوق سطح بيتها بين الدجاج والغسيل . ولا علاقة طيبة بأحد تؤنس وحشتها اذ ضربت حول نفسها سياجا من سوء الظن والتوجس . وتساءل الرجل وهو يرتدى ملابسه ترى هل جاء الفرج أخيرا ؟!.

وقالت تفيدة وهما يسيران جنبا الى جنب فى شارع شبين الكوم :

ـ ستترك ثروة من غير شك ..

ـ سيعرف كل شيء عما قليل ..

ـ والبيت أيضا ، ترى هل يسهل علينا تحصيل الايجار ؟ ، ان أهل الأحياء البلدية قوم متعبون !

فابتسم عبد العظيم لعلمه بأنهم من صميم هؤلاء القوم المتعبين ، وقال :

ـ أراك تتحدثين عنها كما لو كانت قد ماتت ..

فامتعضت تفيدة وتورد وجهها النحيل الشاحب العاطل من الجمال وغمغمت فيما يشبه الحياء :

ـ الأعمار بيد الله وحده ..

ولما أخذا يشقان سبيلهما فى الدرب الأحمر طالعهما الحى القديم بوجه يغشاه البلى والذبول . بدا مكتظا بالناس والحيوان والمركبات . وذكرت تفيدة صباها بقوة مؤثرة ورجع عبد العظيم الى ملعب الطفولة فنطق كل شيء من حيوان وجماد بلغة القلب . وبدا البيت طويلا على غير المألوف فى الحى كله ، وبرزت المشربيات كالأحلام ، وتناثرت أمام المدخل أكوام من الأتربة والحجارة على حين تمددت بجوار الجدار جثة قط على حال تعافها النفس . ورقيا فى السلم ، وهو سلم عالى الدرجات ، حتى لهث عبد العظيم ، وعندما بلغا الدور الثالث قالت تفيدة :

ـ هنا ولدنا ، أنت وأنا ، وعلى هذه البسطة كانت تغنى الفلاحات « البحر زاد » فى موسم الفيضان .

ووجد عبد العظيم ذكرى أخرى فى الدرابزين الذى كان

يتزحلق عليه فأوشك أن يحكيها لكن رغبته فى ذلك فترت فجأة فلم يخرج عن صمته . ووقفا عند عتبة السطح حتى يستردا أنفاسهما المبهورة . يا له من سطح غطى تماما بالأتربة وروث الدجاج وقطع الأحجار الحمراء المتناثرة ، وامتدت فى فراغه فوق ارتفاع القامة حبال الغسيل . وفى الناحية المطلة على الطـريق قامت الحجرة الوحيدة ، متسلخة الطلاء ، باهتة الباب والنافذة ، لا يسهل بحال الاستدلال على أصل لونهما . ومضى الى الباب فطرقه ثم دفعه ودخل تتبعه أخته . هاله منظر النسوة المتلاصقات من شدة الزحمة ، منهن الجالسات على كنبة ومقعدين قديمين ، والباقيات افترشن الأرض ، أما السرير ذو العمد السوداء والناموسية المربوطة من الوسط كالبالون فقـد بدا بالراقدة عليه وحيدا منعزلا رغم الزحام . ولم يظهر من نظيرة الا ثلثا وجهها الشاحب على حين أخفى الغطاء جسمها حتى الذقن ، والمنديل البنى رأسها وجبينها حتى الحاجبين . والتقت الأبصـار عند القادمين . حـدجتهما باستطلاع واهتمام ، وندت على رغم الحرص همسات . وسرعان ما أخلى المقعدان . واتجه عبد العظيم وأخته نحو المقعدين وهو يرفع يده تحية ويتلقى فى نفس الوقت عشرات التحيات . وشعر بشىء من الاستعلاء لا يعد على أى حال شيئا اذا قيس بما شعرت به أخته . كان على علم تام بتأثير بدلته فى النسوة ، وكذلك معطف أخته الذى دفع آخر قسط من ثمنه منذ أشهر قلائل . ولم يخفف من غلوائهما انتسابهما آخر الأمر الى هذا الحى . غير أن ذلك كله لم يدم الا ثوان ، اذ ما كادا يستقران على

المقعدين حتى تركز منهما البصر فى الراقدة فوق الفراش المنعزل. هذه هى العمة نظيرة . طالما عملت لهذا اليوم ألف حساب . وكان كلما خاطبها أحد فى شأن من شئون المال قالت بحدة : « سأموت قريبا وترثوننى » . وثمة انحراف فى جانب الفم يثير الجزع . واستطالة فى الذقن المدبب مع هبوط ملحوظ فى اتجاه الفم الفارغ . أما العارض الذابل فما أشبهه بعارض أبيهما عند احتضـــاره . وعند ذلك تردد عن قلبيهمـــا نفس كالرثاء مفعم بالشجن . ومالت تفيدة نحو أقرب امـــرأة اليها وسألتها عما أصاب العمة فأجاب أكثر من صـــوت فى اختلاط وتسابق : « مسكينة كما ترينها ! » ، « لكن ربنا قادر على كل شىء » ، « جئنا فوجدناها كما ترين » . وهزت تفيدة رأسها كأنما ظفرت بالجواب المطلوب . يا لهؤلاء النســـوة . ما أكثرهن . كأنهن يجلسن فى مسالك التنفس . ساكنات البيت أو من الجيران ولعل فيهن قريبات لهما . فى هذا الحى أقارب لهما يسمعان عنهم ولا يعرفانهم ما عدا الحاج مصطفى الذى يزورهما فى بعض المواسم وهو قريب لأمهما لا لأبيهما . متى وكيف يمكن أن تخلو الحجرة من هذه القناطير من اللحم الآدمى ذى الرائحة المقلقة للأعصاب . وأجال عبد العظيم عينيه فى الحجـــرة التى لا يذكر متى رآها آخر مرة ولا كم كان عمره وقتها . الحق انها حجرة واسعة ، فستقية اللون ، يتدلى من سقفها مصباح كبير آن له أن ينطفىء ، وتطل بالنافذة على الطريق وبأخرى على السطح ، وقد أغلقتا باحكام اتقاء للبرد القارص . وغطيت ببســـاط باهت منجرد



انحسرت أطرافه عن حصيرة مفروشة تحته . وثمة صوان قديم عكست مرآته الوجوه الكالحة . وصندوق مزركش الغطاء استكان تحت السرير ، وترابيزة حملت عوقد كحولى وكنجة قهوة . لكن أين ختم العمة ؟ ... وأين نقودها ؟ .. أين نقودها بصفة خاصة ؟ .. والا فمن أين له بنفقات الدفن والمأتم ؟. وتطلع قليلا الى صورة للبسملة فى اطار فضى معلقة بالجدار المواجه للفراش ، ثم عاد يتساءل ترى أين توجد نقودها ؟ . وشعر بأن الحجرة رغم برودة الشتاء تفور بروائح المطبخ والعرق وصنان الأطفال . وانزعج انزعاجا خاصا لتطلع الأنظار اليه ، تكاد تمضغه مضغا ، ولم تكن تخلو من اكبار واعجاب ولكنه كان يعلم من ناحية أخرى بأنه لا يملك حتى آخر الشهر سوى النقود اللازمة للسجائر والمواصلات .

وتساءل :

ــ ألم يكشف عليها طبيب ؟

وقبل أن يتحرك لسان للاجابة فتح الباب وامتلأ فراغه بشخص جديد . كان ربعة ، يرتدى معطفا غليظا فوق جلباب مقلم ، ملفوف العنق بكوفية مغطى الرأس بطربوش طويل . وسرعان ما ارتطمت الأصوات وهى تحييه قائلة :

ــ أهلا بالحاج مصطفى ..

رد الباب ودخل دون أن يرد تحية لكن ما أن وقع بصره على عبد العظيم وتفيدة حتى تهلل وجهه وأقبل عليهما مصافحا بحرارة وهو يقول :

— أهلا وسهلا ، قضى ربنا ألا يرى بعضنا البعض الا كل حين ومين ..

ولما فرغ من المجاملات المعهودة تراجع الى حافة الفراش وجلس عليها بتؤدة وحرص خشية أن يصيب الراقدة بأى اهتزاز . وآنس من وجه الأخ تطلعا الى معرفة كل شىء عن العمة نظيرة فأنشأ يقول :

— كان الله فى عونها ، لآخر لحظة حافظت على نشاطها اليومى المعهود ، وحتى هذا السلم المرتفع المخيف لم يكن ليحول بينها وبين الخروج كل يوم الى السوق ، وكم رجوتها أن تستعين على وحدتها بخادمة ولكنها ... على أى حال أنت تعرف كل شىء عن هذا الموضوع ، واليوم خرجت للتسوق كالعادة ، قابلتها عند عم حسنين البقال وتبادلنا الدعابات ، ثم عادت تسير على مهل ، ولما صعدت الى الدور الرابع وقفت تحادث ست حميدة ( وأشار الى امرأة مكومة فى الركن ) ثم مضت تصعد الدرجات الباقية ، ولما بلغت باب السطح ند عنها أنين موجع ، فهرعت اليها ست حميدة ..

وقاطعته ست حميدة قائلة :

— لم أكن وحدى ! ، كانت معى أم نرجس ، وكانت ست خيرية فوق السطح تطعم الدجاج !

ابتسم الحاج مصطفى ابتسامة غامضة وقال :

— هرعن اليها ، لكنها أبت أن تستسلم ، أبت أن يسندها أحد ، حاولت بجهد أن تتم رحلتها وحدها ، وجعلت تقول

« لا شيء .. لا شيء » وما لبثت أن سقطت بين أيديهن ! ،
حملنها الى حجرتها وأنمنها على الفراش ، ثم أرسلن فى استدعائى
من القهوة ، جئت مسرعا ، ولما اطلعت على الحال عدت الى
الخارج ثم رجعت بصحبة طبيب حينا ، رجل طيب عجوز لا كأطباء
هذه الأيام ، وكشف عليها باهتمام كبير ، استعمل السماعة وأجهزة
أخرى ، ثم مال علىّ قائلا : « النقطة » .. ووعد بالحضور مرة
أخرى ، ولم يأخذ نظير هذا كله سوى خمسين قرشا !

جعلت تفيدة تفكير فى مقاطعة ست حميدة وما ذكر الحاج
عن أتعاب الطبيب . أما عبد العظيم فاستغرقه التفكير فى الحال
التى سقطت بها العمة نظيرة . ما أشبهها بموت أبيه ، وموت
جده من قبل ، ولعل حينه اذا حان أن يجيء على نفس الحال .
يا لها من ميتة سريعة لا يدرى أحد عنها شيئا . وثبت عينيه على
الوجه الشاحب ذى الفم المنحرف وتساءل : ترى هل تتألم
الآن ؟ ، هل تود الاستغاثة فلا تستطيع ، أو أنها غائبة عن
الوجود كله ؟ .. وهى امرأة فى الثمانين ، كذلك مضى جده فى
نفس السن ، أما أبوه فمات فى الستين دون زيادة ، وعلى ذلك
فلا قاعدة هنالك يركن اليها ، والأمر لا يعدو أن يكون طيشا
وعبثا . وتمتمت تفيدة :

ـــ يمكن ربنا يأخذ بيدها ..

فرفع الحاج مصطفى حاجبيه الكثيفين بشكل غير عادى
وقال :

ـــ ربنا قادر على كل شيء ..

لكن نظرة عينيه أكدت ما ينقض قوله من أساسه . ولاذوا بالصمت مليا . وكاد الصمت يستقر بالحجرة كلها لولا كلمات ندت عن امرأة أو أخرى بقصد المجاملة والمداهنة ، وجميعها توجه نحو الراقدة ، مثل « الله يأخذ بيدها » و « كانت طيبة وأميرة » و « وجـــودها بيننا خـــير وبركة » ، فابتسم باطن عبد العظيم لسابق علمه بما بين عمته وبينهن من مشاحنات ونقار دائم . وكان الحاج مصطفى أعلم بذلك غير أنه كان أجرأ من قريبه فتساءل فجأة بصوت مرتفع :

ـــ اليوم الثالث من الشهر فهل حصلت ست نظيرة ايجار الشقق ؟

وقلب عينيه فى الوجوه الواجمة حتى ارتفع صوت قائلا :

ـــ أنا أعطيتها الأجرة والله شهيد !

واذا بسيل من التوكيدات ينهمر . كل واحدة أكدت أنها دفعت الايجار مستشهدة بزميلة أخرى أو بمناسبة لم يشهدها أحد ، فقال عبد العظيم :

ـــ طبعا معكن الايصالات !

فقالت امرأة :

ـــ نحن نتعامل معها بلا عقود ولا ايصالات ولكن ليس فى ذمتنا مليم واحد ..

وقالت أخرى :

ـــ ومعلوم أيضا أنهـــا لم تكن لتسكت عن متأخـــرة فى الدفع !

فقال الحاج مصطفى منذرا :

— سأدعو على الكاذبة !

فقال أكثر من صوت :

— ادع ، وبيننا وبينك ربنا ..

وكان الشك قويا ولكن لم يكن لدى أحد حيلة فرفع الحاج مصطفى يديه ناظرا الى فوق وقال :

— أنت أعلم بكل شيء ، حسبنا الله ونعم الوكيل ..

ثم نظر اليهن قائلا :

— والآن تفضلن مشكورات حتى ندبر أمورنا ..

ومضت الجالسات يقمن ويغادرن الحجرة ، واحدة فى اثر أخرى ، حتى لم يبق الا امرأتان على الكنبة ، واحدة عجوز والأخرى شابة فى العشرين ، فابتسم الحاج مصطفى وقال مخاطبا عبد العظيم :

— أراهن على أنك لا تعرف هاتين السيدتين ! ، على أى حال هما قريبتاك ، الست بنت بنت أخت نظيرة ، وهذه ابنتها !

تبودلت نظرات باسمة فى فتور . وتوترت أعصاب عبدالعظيم وتفيدة بقلق وعدم ارتياح . واندفعت تفيدة قائلة :

— نريد أن نطمئن على أشياء عمتى !

فقال الحاج مصطفى :

— لا أحد يدرى عنها شيئا ، ولكن يحسن بنا أن نفتش المكان ...

وقام — والأعين تلاحقه — الى الصوان ففتحه ولكنه لم

يجد به سوى بعض الفساتين البسيطة والثياب الداخلية . وعاد الى السرير فأخرج الصندوق من تحته وفتحه فوجد به أوانى نحاسية وموقد غاز وأطباقا وعلبة سمن وزجاجة زيت وكيس ملح ، وسرعان ما أغلقه وأعاده الى موضعه . ونظر الى تفيدة قائلا :

ـــ يحسن بك يا ست تفيدة أن تفتشى صدرها ..

فجفلت تفيدة وهى تبادل أخاها نظرات الحرج ولكن الحاج مصطفى قال :

ـــ يا جماعة انها مصابة بنقطة ، يعنى الشلل ، ألا تعرفان ما يعنيه هذا وبخاصة فى مثل سنها ؟!

فقالت تفيدة باشفاق :

ـــ الأعمار بيد الله ، وربما أفاقت وعلمت بما فعلنا ..

فقال الحاج مصطفى بعفوية عجيبة :

ـــ أقطع ذراعى ان طلع عليها الصبح !...

ثم بلهجة المعتذر :

ـــ يجب أن تتدبر أمرنا ..

وقامت تفيدة فى شىء من التردد فمضت الى الفراش ، ثم أدخلت يداً مرتعشة الى صـــدر عمتها وأخرجت ما وجدته ، أحجبة وعلبة سجائر ولفافة غليظة ، ثم أعادت الغطاء كما كان وعادت الى مقعدها . وتناول الحاج مصطفى اللفافة وراح يفكها تحت الأعين المحملقة . وتمخض البحث عن كيس صغير وورقة مطوية ، بسطها الحاج بعناية واذا بالعجوز تصيح :

ــ دفتر توفير .. دفتر توفير وحياة ربنا فى سماه ..

فحدجتها تفيدة بغضب ، ومضى الحاج مصطفى يقر صفحات الدفتر حتى قال :

ــ مائة وخمسون جنيها فى البريد .. !

فرددت العجوز :

ــ مائة وخمسون جنيها ! .. ربنا كريم .. ربنا كريم .. !

فحدجتها الأعين بنظرات ساخطة حتى أطبقت شفتيها ، غير أن شعور عبد العظيم بالارتياح كان أضعاف شعوره بالحنق على العجوز . وتحول الحاج مصطفى الى الكيس الصغير فأفرغ ما فيه على الفراش فاذا به مبلغ سبعة قروش ! . تبادلوا نظرات حائرة ، وهتفت تفيدة :

ــ سبعة قروش ! ، أين اذن ايجار البيت ؟ !

فقالت العجوز :

ــ جئنا متأخرين للأسف ..

وقال عبد العظيم :

ــ اما أن الايجار لم يدفع واما أنه سرق ..

فهز الحاج مصطفى رأسه متأسفا وهو يقول :

ــ آه من النسوان ! ، حسبنا الله ؛ لا حيلة لنا ، وما فات فات !

فقالت تفيدة :

ــ ومن يدرى فلعلها كانت تملك أشياء أخر .

ــ لعلها ، كلام لا طائل تحته ، حسبكم العمـارة وتقود البريد ..

فقال عبد العظيم بقلق وبلهجة شفت عن مخاوفه :

ــ لكننا قد نحتاج الى نفقات عاجلة ..

فقال الحاج مصطفى بصراحته المعهودة :

ــ نعم فللمأتم تكاليفه ، لكن ربنا موجود ، وأنا تحت أمركم !

فاطمأن عبد العظيم وأعرب عن شكره بابتسامة وغمغمة . وهمت العجوز أن تتكلم لكن الباب فتح ودخل رجل قصير نحيل ذو نظارة سميكة ، وسن جاوزت الستين فقام الحاج مصطفى وهو يقول :

ــ أهلا بالدكتور !

واتجه الطبيب الى الفراش فوضع عليه حقيبته ، وراح يفحص الراقدة ، أزاح جفنها محدقا الى عينها ، وجس النبض ، ثم أخرج من حقيبته السماعة وألصقها بالصدر فوق القلب ، ثم استمع الى دقاته ، ثم أعادها الى الحقيبة وأغلقها ، وبسط فوقها ورقة وكتب على عجل بعض الكلمات وهو يقول :

ــ هذه الحقن لازمة ..

وألقى نظرة على الموجودين قائلا :

ــ السلم متعب !

وابتسم ابتسامة لا معنى لها ثم حمل الحقيبة ومضى والحاج

مصطفى فى أثره حتى غيبهما الباب . وما لبث الحاج أن رجع وهو يقول بلهجة ذات معنى :

ـــ قال لى أن نشترى الحقن حقنة فحقنة لا دفعة واحدة !

ونظر فى عينى عبد العظيم فأدرك هذا أنهم قد لا يحتاجون الى الحقنة الثانية ! .

ومد بصره الى الراقدة كأنما يلقى عليها نظرة الوداع . ومهما يكن من أمر فلا ينبغى لهذه الجلسة أن تطول فى هـــذا الجو البارد . يا لها من حجرة قامت فى خلاء يصـــفعها هواء الشتاء البارد فى كل جانب . وها هو الأصيل يغشى كل شيء ، وزفيفه الريح يشتد فى الخارج ، والبرودة تسرى فى الأطراف . وما زال هذا الوجه الشاحب يذكره باحتضار أبيه فيثير أشجانه . وقرب هذه العجوز منه يؤلمه كأنه حجـــر مغروس فى جنبه . ومضى الوقت فى صمت ثقيل حتى فتح الباب وترامى صوت ينـــادى على الحاج مصطفى فهتف به هذا :

ـــ ادخل يا عليش !

فدخل قزم يحمل لفة ضخمة أكبر من حجمه فتناولها الحاج ، ثم وضعها على الفراش عند قدمى الراقدة . وذهب القزم ورد الباب وراءه دون أن ينبس أو يلتفت الى أحد .

وتلاقت الأبصار عند اللفة فقال الحاج مصطفى بصـــوت انخفض قليلا عن درجته المألوفة :

ـــ لا مؤاخذة .. هذا هو الكفن ولوازمه ..

وعكست الأعين جفولا كأنهم ينظرون الى ثعبان فهز الحاج رأسه وقال :

ــ وحدوا الله ، ما نحن الا أموات وأبناء أموات ، وأنا أعلم من أول الأمر أن كل شيء سينتهى فى ساعات ، وغرضى الكرامة والستر !

لم يعقب أحد بكلمة فواصل الرجل حديثه بلهجة من يلقى بتعليمات نهائية :

ــ رتبت كل شيء بروية ، والأعمال بالنيات ، فاذا قضى الله قضاءه سأحضر المغسلة ، ثم نكفنها وندفنها ولو آخر النهار ، أليس اكرام الميت دفنه ؟ ، وأنت يا عبد العظيم افندى لا تحب وجع الدماغ ولا الكلام الفارغ ، بعد ذلك نجىء بمقرىء فيقرأ سورتين هنا فى حجرتها ، ثم فيما بعد تتحاسب ، والدار أمان .. وهذا أكرم للمرحومة .. !

واتنبه من توه الى أنها لم تصر بعد « مرحومة » فارتبك لحظة واحدة ثم صحح نفسه قائلا :

ــ لا مؤاخذة أعنى ست نظيرة ، أستغفر الله العظيم ..

ازداد عبد العظيم اطمئنانا بهذا الكلام ، فهو رجل لا خبرة له تذكر فى هذه الشئون فضلا عن كسله المكتسب من الروتين الحكومى الذى غرق فيه زهرة عمره . وتذكر فى ارتياح أن بعض النقود المتوفرة فى البريد تفى بالنفقات جميعا حتى مع ادخال المبالغات المرتقبة من ناحية الحاج مصطفى فى الحساب ! ، وهو رجل ــ الحاج ــ لن يضيره تأجيل الحساب حتى تتم اجراءات

اثبات الوراثة المعقدة . واستقر الصمت مليا فالتمسوا فيه شيئا من الاستجمام . واتجهت الأنظار صوب الراقدة ، كأنما تسألها عن متى يشرعون فى العمل بعد أن تم الاتفاق على كل شىء . واشتد الاحساس بالبرد فلذلك تقرفصت القريبة العجوز ابتغاء للدفء ، والتصقت بها ابنتها . واذا بالعجوز تخرق الصمت قائلة كأنما تخاطب ابنتها :

— والله لك قسمة يا درية فى ميراث كبير على آخر الزمن ..

واشتعل انتباه عبد العظيم وأخته بعنف . وعكست عيناهما حنقا كالوهج على حين هز الحاج رأسه فيما يشبه الأسف . وتساءلت نفيدة بحدة :

— من أين عرفت هذا ؟

فقالت العجوز بعناد :

— هى خالة أمى وكل شىء فى الورق !

ولم تقنع العجوز بالكلام فقامت الى النافذة المطلة على الطريق ففتحتها غير مبالية بالهواء البارد الذى اندفع الى الداخل كالسياط ، ثم نادت بصوت مرتفع :

— يا شيخ عويس ... يا شيخ عويس ..

وفتحت نافذة فى البيت المواجه لهم عن وجه كهل متلفع بعباءة مغطى الرأس بطاقية صوفية . نظر اليها وهو يتساءل :

— مالك يا ست نفيسة ؟

فقالت وهى تحبك الملاءة حول جسدها النحيل خوفا من البرد :

— ربنا يكرمك ، لا تؤاخذنى ، لكنى فى حاجة الى رأيك ، اذا ماتت واحدة بلا ذرية ألا ترثها بنت بنت أختها ؟

فدهش الرجل وقال :

— وهل هذه المسائل مما يحل من النوافذ ؟ ، تعالى الى المكتب ، أو شرف البيت ..

فقالت بتوسل :

— وحياتك وحياة أولادك الا ما أخبرتنى ..

فتساءل الرجل :

— هل الست نظيرة لا سمح الله ... ؟ !

وأشار بيده اشارة تعرب عن الانتهاء لكنها قالت :

— كلا يا سيدنا الشيخ ، ولكنى أحب أن أعرف رأيك ..

فتراجع الرجل الى الداخل مقطبا وهو يقول :

— يا ست نفيسة لكل شيء وقته ..

ونهض الحاج مصطفى فأزاحها عن النافذة ثم أغلقها وهو يقـول :

— عودى الى الكنبة ووحدى الله ..

وتمتم عبد العظيم وهو يكظم غيظه :

— البرد سيقتلنا والمريضة فى حالة خطيرة ..

وقالت نفيدة بصوت متهدج :

— لم يعد فى الدنيا ذوق ..

فرجعت المرأة الى مجلسها وهى تقول بجفاء وتحد :

. — حيلك يا ست هانم ، انها لا تعرف لها أهلا غيرنا ، أما أنتم فلم تحضروا الا عند الوفاة !

وأشار الحاج الى نفيسة متوسلا أن تسكت وخاطب نفيسة قائلا :

— يا ست نفيسة ما معنى هذا كله ! ، هه ، ان كان لك حق فما من قوة تمنعه عنك ، أليس فى البلد محاكم وقوانين ؟ ، وعبد العظيم افندى رجل موظف محترم ، وكذلك الست أخته فلا لزوم للكلام الفارغ ..

وهمت العجوز بالكلام ولكنه نهرها بحزم فأطبقت شفتيها . وسكت كل شىء فلم يعد يسمع الا عويل الريح فى الخارج ولغط بعض المارة فى الطريق ، وأنفاس الحاج مصطفى المحشرجة .

وشعر عبد العظيم بهواء بارد يتسرب الى قدميه قادما من عقب الباب فانكمشت أصابعه فى الحذاء . وأخذ جو الحجرة بمرور الوقت يشحب ثم يغمق رويدا مؤذنا بالمغيب . وركبهم اليأس . حتى الحاج مصطفى أشعل المصباح وهو يقول : « ما زال فى العمر بقية ، وحتى اذا وافى الأجل اليوم فلا بد من الانتظار الى الغد » . وتساءل عبد العظيم : « هل قضى عليهم بالبقاء فى هذه الحجرة الكئيبة ، وعلى مقربة من هذه العجوز الوقحة ، طيلة ليل الشتاء البارد ؟ » . ولم يعد مصطفى الى مجلسه ولكنه زرر معطفه استعدادا للذهاب ثم قال :

— لا لزوم لى الآن ، أنا ذاهب الى بيتى فاستدعونى اذا حصل شىء ..

ومضى تاركا عبد العظيم لمزيد من الكآبة والضيق . نظر الى العمة بوجوم ، وكانت راقدة فى غير ما اكتراث لشىء فى الوجود ، أى شىء فى الوجود . واشتد هبوب الريح حتى انقلبت زئيرا وتجسدت الكآبة كالجدران القائمة . وشعر عبد العظيم بحنان عارم الى مجلسه فى البيت على كثب من الراديو بين زوجه وأولاده ، الى صخب الأولاد وشقاوتهم وتعلقهم العجيب به . وحملت الريح فيما حملت صوتا يغنى فى الراديو :

يا امه القمر ع الباب

فحاول أن ينسى فيه ألمه . ومر الوقت أثقل من الخوف . وجثم الليل . وأفصحت طقطقة الكنبة والمقعدين عن تململ الجالسين . وما لبث أن مال رأس العجوز الى مسند الكنبة وراحت تشخر شخيرا ضاعف من البلوى . وتمتم عبد العظيم :

— كيف يمكن أن يمضى هذا الليل الطويل ؟

فقالت نفيدة بعطف :

— ارجع الى البيت ..

فقال بلهفة :

— تعالى معى ..

— هبها ماتت ... أثناء غيابنا فماذا يقول الناس ؟ !

فأبى أن يذهب وحده . وبدا أن المريضة هى الوحيدة التى ترقد فى سلام . ومضى الليل يعد ذرات زمال الدنيا . واضطر الأخ وأخته الى الانتقال الى الكنبة التماسا لمجلس أطرى وتمهيدا

لنعاس متقطع متعب على مرمى أنفاس الموت المترددة . ولم يجد الرجل ما يتسلى به سوى التفكير فى الميراث المنتظر ، فى نصيبه من مال البريد ، ومن ايراد البيت الشهرى الذى لا يقل عن عشرة جنيهات ، ألا يضمن على الأقل مقدار علاوتين شهريتين ؟ ، لعله يتمكن من شراء معطف فما يجوز أن يلقى الشتاء كل عام بلا معطف فى مثل هذه السن ، ولعله يستطيع أن يرفه عن أسرته بشىء من الفاكهة الممتازة من حين لآخر ، أو بنوع من الطيور ولو مرة فى الشهر ، لا شك أن الحياة ستكون أجمل مما كانت حتى الآن . وغلبه النوم وهو يناجى أحلامه . واستيقظ هو وأخته فى الصباح الباكر بجسدين متوعكين فى أكثر من موضع . واقتربت نفيسة من فراش العمة وانحنت فوقها متفحصة ثم عادت الى أخيها وهى تقول :

— ينبغى أن نذهب الى البيت ولو لبضع ساعات ..

فقالت ست نفيسة التى ظناها نائمة :

— تذهبان وترجعان بالسلامة ..

فتلقت مجاملة العجوز كأنها بودرة عفريت رشت فى قفاها . وذهبا معا واجمين . وفى الطريق قال عبد العظيم لأخته :

— لى صديق محام سيحل لى ألغاز الميراث فى أقرب وقت ..

...

وعادا قبيل الظهر بقليل . وأرهفا السمع وهما يقتربان من البيت ولكنهما لم يسمعا شيئا مما كانا يتوقعان . كل شىء هادىء فى البيت . والدجاج يتمشى فوق السطح فى غبطة ظاهرة

ويميل برأسه الى الوراء لينظر الى القادمين . ووجدا فى الحجرة العجوز وابنتها والحاج مصطفى والفراش المنعزل الصامت حاملا العمة المصابة وكفنها المكوم عند القدمين . سلما ثم اتخذا مجلسيهما على المقعدين كالأمس وهما يكابدان احساسا بالخيبة وخوفا من أن يتكرر عذاب الليلة الماضية . وخيل اليهما أن الحاج مصطفى همّ بالكلام لكنه عدل عنه . ماذا كان يريد أن يقول ؟ . لعله يشعر بما يشعر به أى سمسار انكشف خداعه !.. والحق أن الحياة لا يمكن أن تحتمل على هذا النحو الأليم من الانتظار فوق مقعد خشبى على كثب من كفن . وكم من مشلول عاش دهرا طويلا ! . وربما وجبت عليهم خدمة المريض زمنا لا يدرى مداه أحد . وقال الحاج مصطفى بلهجة ذات معنى :

— نحن نشترى الحقن حقنة بعد حقنة !

ألا خيبة الله ! . أنت وطبيبك نفسه ! . ولم يعلق عبد العظيم لا بكلمة ولا بنظرة . وراح الحاج يقص القصص عن الشلل والمشلولين . جدكما مثلا مات بمجرد اصابته . أبوكما لم يلبث الا ساعات . وصاحب العمارة فى أول الطريق سقط فى القهوة ولفظ أنفاسه قبل أن يجد من ينقله الى البيت . وعشرات غيرهم أى نعم عشرات . وما لبث أن قام قائلا :

— استدعونى اذا جد جديد ..

وغادر الحجرة . وعقب ذهابه مباشرة أقبلت مجموعة من الجارات فاستحسن عبد العظيم أن يذهب أيضا . مضى الى قهوة بالأزهر ، ثم تناول غداءه عند العاجاتى وعاد الى الحجرة فوجد

الحال كما تركه . ولبث دقائق ثم مضى مرة أخرى الى القهوة فبقى بها حتى أتى المساء فعاد الى الحجرة بأمل جديد ولكنه وجد الحال كما تركه . وقالت له نفيدة بحزم :

— لن تستطيع المبيت هنـــا ليلة أخرى ، ارجع الى البيت وسأبقى أنا ..

وغمغم بشىء لم يتبينه أحد ثم ذهب . رجع الى أسرته ، واطمأن فى مجلسه أمام الراديو بين الأولاد ، وتأرجح قلبه بين الطرب وبين عواطف الأبوة الأصيلة العميقة التى يلهمها كل ولد بطريقته الخاصة . وعمقت تجربة الليلة الماضية من مسرته بالمجلس كأنما هو عائد اليه من مرض أو سجن . وسألته زوجته :

— أليس من الواجب أن أذهب معك غدا ؟

فقال بجـــد :

— لا داعى لذهابك مطلقا !

ومضى مع الصباح الى الدرب الأحمر . وكان كل شىء كما توقع ، يجرى على مألوفه . وضحك الحاج مصـــطفى ضحكة فاترة وقال وهو يشير الى العمة :

— كعـــادتها دائما ، ربنا يلطف بها ، كانت رغم كل شىء ظريفـــة !

ثم قص عليهم كيف أنهـــا رغبت أخـــيرا فى اجراء بعض الاصلاحات فى دورة المياه فكلفته بالقيام اللازم ، وكيف واظبت على مراجعة حسابه قبل الاذن بالشروع فى العمل الذى لم يتم وكيف لم تخف ســـوء ظنها بكل رقم ، ثم كيف قالت له بكل

بساطة : « يا مصطفى ، أنت كلك ضلال كالمرحومة أمك » .
وضحك الرجل ضحكة عالية لكنه اضطر الى قطعها على صوت تفيدة وهى تهتف :

— انظروا ..

اتجهت الأبصـــار نحو العمة فرأوا الغطاء وكأنه يتحرك ، يقب قليلا فوق يدها اليسرى . اقترب الحاج مصطفى من الفراش وأزاح الغطاء قليلا فبدت يسراها وهى تتحرك . ارتفعت قليلا ، وانبسطت راحتها ثم انقبضت ، ثم اســتكنت فوق الصدر . حملق الرجل فى الراقدة بذهول ، ثم أعاد الغطاء الى سابق وضعه وعاد الى مجلسه . وتوتر الصمت كالشلل . ترى أى قوة خفية تعبث بهم وتعــذبهم ؟ ! . ألم تكن الحيـــاة محتملة رغم كافة متاعبها ؟. ماذا رمى بهما الى هذه التجربة ؟. وقالت تفيدة بحدة :

— ضعوا الكفن تحت السرير ..

فرفع الحـــاج حاجبيه الكثيفين فى حـــيرة ولم ينبس ولم يتحرك ، فعادت تفيدة تقول :

— رأسى سيتكسر من قلة النوم ...

فنظر عبد العظيم نحو الحاج وقال :

— لنذهب الآن ثم نعود عصرا ..

وشجعهما الحاج بهزة من رأسه فغادرا الحجرة على الفور . وقالت تفيدة وهما يقطعان الغورية :

— هذا حرام من أوله الى آخره ، والله يعاقبنا ..

فقال عبد العظيم بعصبية :

— ماذا فعلنا ؟ .. البغل وحده الذى أكد أول يوم أنها ستدفن قبل هبوط الليل ..

— الحق انى كرهت كل شىء ، كرهت نفسى يا أخى ..

— لا اعتراض لنا على مشيئة الله ..

ثم بلهجة متطورة الى الهدوء وكانا يقتربان من شارع الأزهر :

— اذهبى الى البيت وسأذهب الى المصلحة ..

وقفا فى المحطة ينتظران الترام . وحانت من عبد العظيم نظرة نحو مدخل الغورية فرأى الحاج مصطفى يهرول نحوهما . وقف أمامهما وهو يلهث ثم قال :

— الحمد لله على أن أدركتك قبل أن تركب ..

ثم مواصلا كلامه بعد لحظات استراحة :

— البقية فى حياتك ..

ألجمت الدهشة لسانيهما . وتدفق الى نفسهما خليط من المشاعر ، الخوف والحزن والارتياح والخجل . ورجعوا جميعا وتفيدة تتساءل :

— ظننت أنها .. رباه .. كيف حدث هذا ؟

فقال الحاج مصطفى وكان ما يزال يلهث :

— كما يحدث عادة ، لا غريب فى الأمر ، سعلت قليلا ، وبدا أنها تحاول أن تتكلم ، ثم شهقت شهقة خفيفة ، وخرج السر الالهى ..

وترامى اليهم من ناحية البيت صوات جماعى ! . وقع من

نفوسهم موقعا غريبا ولكنه أحدث تأثيرا غير منتظر فجاش صدر عبد العظيم بالانفعـــال وأجهشت تفيـــدة فى البكاء . وعندما اقتربت من السطح ولولت صائحة : « يا عينى يا عمتى .. يا عينى يا عمتى ! » .

وجرى كل شىء كما رتب الحاج مصطفى من قبل فخرجت الجنازة قبيل الظهر . وسار فيها جمع غفير من أهل الحى سواء للمجاملة أم ابتغاء الثواب . وتراءى الشيخ عويس المحامى وهو يسير بين المشيعين فشق الحاج مصطفى سبيله اليه ولزمه حتى صلى على الفقيدة فى الجامع . ولما استأنفت الجنازة سيرها الى باب النصر بالبقية القليـــلة من المشيعين عاد الحاج الى جانب عبد العظيم شلبى ولكزه بكوعه قائلا فى همس :

— لن يشارككما أحد ..

فسأله عبد العظيم بلهفة :

— أقال ذلك ؟

— تقريبا ، المسألة تحتاج الى مراجعة طبعا ولكن اطمئن !

فدارى عبد العظيم فرحته بقناع من الجد وتمتم :

— نحن راضون بما قسم الله به ..

واتهت الجنازة الى المدفن القديم ، فأنزل النعش على كثب من القبر وجلس المشيعون فى الحوش غير المسقوف على كراسى من الخيزران . ومضى عبد العظيم الى القبر المفتوح ووقف عند رأسه مذعنا لرغبة غامضة أقوى من الخوف الذى لم يصده . كان القبر ذا منامتين ، واحدة للرجال والأخرى للنساء فأرسل

طرفه الحائر نحو منامة الرجال . رآهم صفا متراميا الى الداخل ، على رأسهم أبوه الذى استدل عليه بموضعه وبلون كفنه الكمونى المقلم ، وتلاه أخوه ، ثم جده . وثقل قلبه جدا . وضغط الانقباض على أضلعه ضغطا غير محتمل . لكن عينيه تحجرتا فلم تذرفا دمعة واحدة . وامتلأت خياشيمه برائحة ترابية نافذة كأنما تصدر عن الفناء نفسه . ومرت لحظة مات فيها كل شىء فلم يعد لأمر قيمة ولا معنى . وشعر بيد توضع على كتفه فالتفت فرأى الحاج وهو يشير اليه أن يتخلى عن مكانه للدافنين ، وسرعان ما تراجع . وبدأ العمل فحمل الجثمان ليودع مقره الأخير . وانبعثت آيات من صوت كئيب كأنما تنبعث من خزانة للأحزان . وبدأ التلقين فى رتابة مخوفة مضجرة ، ألقته حناجر أشباح شائهة ، فحلت به جملة ألغاز الأبد . وقال عبد العظيم لنفسه : يا لها من أسئلة ولكن كيف يتاح الجواب لمنفرد بظلمة القبر ! . وتتابعت الأصوات فى رتابتها تنفث كآبة كالغبار ، وفى الحوش تردد صوت السقاء اليائس وهو يجول بين الجالسين بابريقه دون أمل . وطار فكر عبد العظيم فجأة الى ابنه البكرى فعاهد الله على أن يجرى له جراحة لاستئصال اللوزتين كما نصح بذلك طبيب الوحدة المدرسية ، فهذا خير على أى حال من أن يتهدده روماتيزم القلب فيما بعد . وعاهد ربه أيضا على الاقلاع ما أمكن عن المواد الدهنية كما أشار عليه الطبيب منذ عام بغض النظر عن الثروة المنتظرة . وتلاحقت الأصوات فى سرعة موحية بنهاية الحفل فحن قلبه الى البيت

والأولاد بقوة وجد فيها العـزاء عما ساوره من قلق . وتابع الحاج مصطفى وهو يساوم الترابى وينفح السقاء بشىء من الجود ، وكذلك المقرئين ، وارتفع صـوته الجهير وهو يزجر الطامعين بغلظة . وآمن بأن ذلك الرجـل سيخرج من المولد بغنيمة طيبة ولكنه كان مقتنعا كذلك بأنه لولا خدماته لغرق فى الارتباك والخسران حتى أذنيه . ومضى المشيعون ينصرفون حتى لم يبق الا الحاج مصطفى وعبد العظيم . وكانت الشمس تسطع فى سماء خلت تقريبا من السحب فبثت فى الجو دفئا مليحا فدعا الحاج مصطفى صاحبه الى الجلوس على دكة عند طرف المدفن ليستريحا قليلا . وتردد عبد العظيم عن قبول الدعوة مقلبا عينيه فى الخلاء المكتظ بالقبور الى ما لا نهاية أمام الدكة وفيما حولها ولكن الحاج تعلق بذراعه وقال متوسلا :

— لم أجلس منذ الصباح ولا ثانية ، دقائق معدودات ثم نذهب ..

وجلس الحاج فجلس عبد العظيم وهو كاره . بدا كأنه يعجب من كثرة القبور حوله فأراد الآخر أن ينتزعه من كآبة المنظر فقال :

— غلبنى التعب المتراكم ، وأمامنا مشوار ليس بالقصير ، وأنت رجل ظريف تستحب معاشرته ، بالله خبرنى ماذا نويت أن تفعل ؟

فتساءل عبد العظيم بدوره :

— فيم ؟

فلوح الآخر كأنما يشير الى القبور وقال :

— فى كل شىء ، أعنى الأمور الجديدة التى تتطلب أسرع الحلول ، طبعا عليك أن تشرع فورا فى اجراءات اثبات الوراثة ، وقبل ذلك علينا أن نستشير المحامى بصفة رسمية ، بعد ذلك تصبح أنت والست أختك المالكين — وحدكما ان شاء الله — للبيت وتقود البريد ..

فهز عبد العظيم رأســه بالايجاب ولكنه حسب للمجهود ألف حساب . وقرب الآخر فمه من أذنه كأنما يخشى أن يسمعه من فى القبور وقال :

— الحق ان المتاعب ستبدأ بعد ذلك ..

— المتاعب قبل ذلك .. ؟

— أتظن هذا ؟! ، ماذا تعرف عن مهمة أصحاب البيوت ؟

فقال عبد العظيم بقلق :

— لا أدرى ، هل ثمة شىء خلاف تحصيل الايجار فى أول الشهر ؟

— وكيف يحصل الايجار فى أول الشهر ؟

فابتسم عبد العظيم فى حيرة دون أن ينبس فقال الحاج :

— واحــد يدفع وعشرة يتهربون ، هــذا يجب أن تمهله أسبوعا ، وذاك وقعت له مصيبة ويطلب التأجيل الى الشهر القــادم ، وثالث لن تجده فى مسكنه أبدا ، ورابع وخامس ، أنت لا تعرف أهل حينا ولا سكان هذا البيت بصفة خاصة ، الله

يرحم عمتك ، كانت مجاهـدة عظيمة ، ولكن أنت ، الموظف المحترم ، المؤدب المهذب ، ماذا تستطيع أن تفعل ؟

فقال عبد العظيم وهو يشعر بأن جدارا يرتفع أمامه ليخفى عن عينيه أحلامه العسلية :

ـ فى البلد قانون !

ـ اذن فلتلزم نقطة البوليس ولتسكن فى مكتب محام ..

ـ الدنيا ما تزال بخير ..

فقال الآخر بتوكيد :

ـ البيت كالعروس الجديدة ، مرة ترجع اليك لأن زوجها ضربها ، ومرة لأن حماتها شتمتها ، ومرة لأن المصروف غير كاف ، صدقنى ان هذا هو حال البيت ، الحنفيات خربت ، دورة المياه انسدت ، السلم تشقق ، وهذا هو وجع الدماغ الأصلى .. !

تجهم وجه عبد العظيم وشعر بضيق شديد ، ورمق صاحبه بنظرة استياء ثم سأله :

ـ ماذا تقصد ؟

فقال الحاج بصراحة مذهلة :

ـ بعه !

فقطب عبد العظيم مستنكرا ولكن الآخر قال :

ـ أنا رجل صريح ، لا أخفى عنك أن البيع مفيد لى ، كل بيع أو شراء فى حينا مفيد لى ، ولكن هذه الصفقة مفيدة أكثر لك أنت ، هذا هو المهم ، أنا لا أكذب عليك فأقول انى أراعى مصلحتك ، الحق انى أجرى وراء مصلحتى ، ولكنها فى هذه

الحال مصلحتك أيضا ، ستأخذ ألفا أو ألفا وخمسمائة ، ان شاء الله ألفين ، وستستغلها استغلالا أحسن وبعيدا عن وجع الدماغ ..

فكر عبد العظيم فى الأمر باهتمام جدى ، لكنه تمتم متظاهرا بالجزع :

ـ يا لها من خسارة !

ـ أبدا وحياتك ! ، سيكون المبلغ كله بين يديك ، بما فيه نصيب أختك ، لن تجد معارضة من ناحيتها أبدا ، فيمكن أن تستغله باسمك وباسمها ، وهى وحيدة ، لا أحد لها فى الدنيا سواك ، وسيؤول كل المال اليك والى أولادك من بعدك !

فقال عبد العظيم بحدة :

ـ سيكون حقها كله تحت تصرفها ..

ـ طبعا .. طبعا ، أنت لا تفهمنى يا سى عبد العظيم !

وأخفى عبد العظيم عينيه عن صاحبه وعن القبور بالنظر الى الأرض . مبلغ كبير بلا شك . وطالما أكرم تفيدة فهى لن تعارضه ولن تحاسبه . وأولاده ما هم الا أولادها . وثمة وجوه كثيرة للاستغلال بلا شك . الحق أن الفكرة طيبة . وغمغم فى حذر :

ـ سأفكر فى الأمر ..

فقال الحاج مصطفى بارتياح :

ـ فكر على مهلك ، واذا قررت البيع فاحضر بنفسك أى سمسار كما تشاء حتى تقبل عن رضى الثمن المعروض ولك

عليَّ بعد ذلك أن أجد لك شـــاريا بنفس الثمن ، والأقربون أولى بالمعروف !

الفكرة وجيهة . وسوف يشاور أصدقاءه . والبيع على أى حال خير من مناكفة المستأجرين ، ورعاية بيت قديم من عهد نوح . وقال :

ــ اتفقنا يا حاج من ناحية المبدأ ..

فلوح الحاج مصطفى بذراعه كأنما يقول « اتفقنا » ، فانطلقت ذراعه فى الهواء كشاهد من آلاف الشواهد القائمة حوله فوق القبور . ورأى عبد العظيم ذلك المنظر فانقبض صدره .. وقام وهو يقول برجاء :

ــ آن لنا أن نذهب ..

# الجامع في الدرب

حان موعد درس العصر ولكن لم يوجد بالجامع الا مستمع واحد . ولم يكن هذا بالأمر الجديد على الشيخ عبد ربه الامام ، فمنذ التحاقه بخدمة الجامع وهو لا يجد مستمعا لدرسه الا عم حسنين بياع عصير القصب ، ولذلك دأب المؤذن والخادم على الانضمام الى الرجل احتراما للدرس ومجاملة للامام . وحق للشيخ عبد ربه أن يستاء لذلك ، لكنه كان اعتاده مع الزمن ، ولعله كان يتوقع ما هو أفظع يوم تقرر نقله الى هذا الجامع الرابض على باب حي الفساد . يومذاك غضب ، وسعى الى الغاء النقل أو تعديله ، لكنه اضطر الى تنفيذه على رغمه ، ولاقى بسبب ذلك ما لاقى من تهكم الخصوم ومزاح الأصدقاء . أين يمكن أن يجد مستمعا لدرســه ؟ ! . الجامع يقوم عند ملتقى دربين ، درب الفساد الشهير ، ودرب آخر بمثابة مباءة للقوادين والبرمجية وموزعي المخدرات ، ويبدو أنه لا يوجد رجل صالح أو حتى رجل عادى فى الحى كله الا عم حسنين بياع العصير . ولبث دهرا يفزع كلما امتد بصره الى داخل هذا الدرب أو ذاك ، وكأنما كان يخشى اذا تنفس أن تتسرب الى صــدره جراثيم الدعارة والجريمة . على ذلك كله واظب على القاء درسه مواظبة عم حسنين على الحضور ، حتى قال للرجل يوما بلهجة التشجيع :

— بهذا الاجتهاد ستصير عما قريب اماما يرجع اليه !

فابتسم العجوز فى حياء وقال :

ــ علم الله لا حدود له ..

وكان درس اليوم عن نقاء السريرة بصفته عماد الاخلاص وأس المعاملة الشريفة بين المرء ونفسه وبينه وبين الناس الى أنه خير ما يستقبل به الانسان يومه . وأصغى عم حسنين باتتباه كعادته ، وكان قليل السؤال الا أن يكون ذلك عن معنى آية أو استيضاح لشأن من شئون الفرائض . وفى ذلك الوقت من اليوم ــ العصر ــ يستهل الدرب حياته . كان الدرب يرى بكامله من نافذة الجامع القبلية ، ضيقا متعرجا فى بعض أجزائه طويلا تقوم على جانبيه أبواب البيوت البالية والمقاهى ، لمنظره وقع غريب مثير للغرائز . فى العصر تدب فى الدرب حركة استعداد كأنه يتمطى مستيقظا من سبات . الأرض ترش بالجرادل . الأبواب تفتح وتطرق طرقات غريبة . المقاعد تنتظم فى القهوات . نسوة فى النوافذ يتزيّن ويتبادلن الأحاديث . ضحكات متهتكة تلعلع فى الجو . البخور يحترق فى الدهاليز . ولم يخل الأمر من امرأة تبكى فتحثها المعلمة على التعزى كيلا يضيع الرزق كما ضاع الفقيد . وأخرى تضحك ضحكة هستيرية لأنها لم تنس بعد مصرع زميلتها وهى قاعدة الى جانبها . وقال صوت غليظ مستنكرا :

ــ حتى الخواجات ! ، حتى الخواجات يا هوه ! ، خواجا يضحك على فردوس ! ، يبتز منها مائة جنيه ويهجرها !

وثمة أصوات تتمرن على أداء أغنيات مبتذلة فاحشة . وفى نهاية الدرب بدأت معركة بالكلام وانتهت بالكراسى . ثم خرجت

لبلبة لتجلس أمام باب أول بيت ، وأشعل أول فانوس ، وشعر كل بأن الدرب عما قليل سيستقبل الحياة ..

وذات يوم دعى الشيخ عبد ربه باشارة تليفونية الى مقابلة المراقب العام للشئون الدينية . وقيل له انها دعوة عامة للأئمة . ولم يكن ذلك بالأمر غير المألوف وخاصة للظروف التى سبقت الدعوة . ومع ذلك تساءل الرجل عما وراء الدعوة بشىء من القلق . كيف لا والمراقب شخصية خطيرة ، تستمد خطورتها من قرابة لموظف كبير ملعون الاسم على كل لسان ، موظف يجىء بالوزراء ويذهب بهم ، ويعبث بكافة المقدسات الشعبية . سيكونون بين يديه خير ممثلين للضياع وستذروهم رياح الغضب لأقل هفوة . وبسمل الشيخ ، وتأهب للاجتماع بخير ما لديه ، فارتدى جبة سوداء وقفطانا شبه جديد وقلوظ العمامة ثم ذهب متوكلا على الله . وجد الطرقة أمام مكتب المراقب شديدة الزحام كأنها على حد تعبيره يوم الحشر . وجعل الأئمة يتبادلون الخواطر ويتساءلون عما وراء الاجتماع من أمور . ففتح الباب الكبير وأذن لهم بالدخول فدخلوا تباعا الى الحجرة الواسعة حتى اكتظت بهم . واستقبلهم المراقب بوجه وقور يشع رهبة . استمع كالكاره الى مقطوعات المديح التى انهالت عليه وهو يدارى ابتسامة غامضة . ثم ساد الصمت واشتد التطلع على حين أخذ هو يقلب عينيه فى الوجوه . وحياهم تحية مقتضبة . وأعلن ثقته فى أنهم سيكونون عند حسن الظن بهم . وأشار الى الصورة المعلقة فوق رأسه وقال :

— واجبنا نحوه ونحو أسرته العلية هو ما دعا الى هذا الاجتماع ..

انقبضت صدور كثيرة دون أن يزايل البشر وجوه أصحابها . وقال المراقب :

— ان العلاقة الوطيدة التى تربطكم به فوق الكلام ، انها مودة تاريخية متبادلة .

أشرقت الوجوه بالتأييد لتدارى توعك القلوب ، وواصل الرجل الحديث قائلا :

— وحيال الأزمة التى تجتاح البلاد يطالبكم الاخلاص بالعمل ..

اشتد اضطراب القلوب فى مسرحها الخفى :

— بصروا الشعب بالحقائق ! ، اهتكوا أستار الدجالين ومثيرى الشغب ، كى يستقر الأمر لصاحب الأمر ...

وصال المراقب وجال مستنفدا هذه المعانى ، ثم تساءل وهو يتفحص الوجوه ان كان ثمة ملاحظات يراد أن تقال ! . غشى المكان الصمت حتى انبرى امام جرىء فأكد أن المراقب أفصح عن مكنون القلوب وأنه لولا الخوف من خرق التعليمات لسارعوا من أنفسهم الى ما دعاهم اليه من واجب ! . وانجاب القلق عن الشيخ عبد ربه مذ بدأ المراقب حديثه . أدرك لتوه أنهم لم يدعوا لأى نوع من المحاسبة أو التحقيق ، بل ان السلطة تسعى اليهم هذه المرة باسطة يدها . ومن يدرى فلعله يعقب ذلك اجراء جدى لتحسين حالهم فيما يتعلق بالمرتبات

والمعاشات . غير أنه سرعان ما ارتد الى القلق كما ترتد الموجة المنبسطة على الساحل الرملي الصافى الى الزبد . أدرك بوضوح ما يراد بهم وما سوف يجد نفسه مضطرا الى قوله فى خطبة الجمعة مما يأباه ضميره ويمقته الناس . ولم يشك فى أن الكثيرين يشاركونه مشاعره ويعانون أزمته ، ولكن السبيل فيما يبدو مسدود فى وجوه الجميع . وعاد الى الجامع وهو يعمل فكره فى همومه الجديدة .

وكان شلضم البرمجى المعروف بالحى مجتمعا بأعوانه فى خمارة « أهلا وسهلا » على مبعدة أمتار من الجامع . بدا غاضبا كالنار وكلما شرب قدحا من النبيذ الأسود ازدادت النار اشتعالا . وقال بصوت كالخوار :

ـــ البنت نبوية المجنونة تحب الولد الرقيع حسان ، لا شك عندى فى ذلك ..

فقال له صاحب يبغى تهدئته :

ـــ لعله زبون ، مجرد زبون لا أكثر ولا أقل ..

فدق شلضم الترابيزة بقبضة من حديد تناثر لها الترمس والفول السودانى وقال بوحشية :

ـــ لا ... انه يأخذ ولا يعطى ، أعرف ذلك كما أعرف أن طعنة خنجرى قاتلة ، وهو لا يدفع مليما واحـــدا بينما يتلقى الهدايا أشكالا وأنواعا !

فأعلنت الوجوه التقزز والازدراء وأفصحت الأعين المخمورة عن التأهب والامتثال فقال :

ــ الرقيع يجيء عادة حينما ترقص الأفعى ، انتظروا مجيئه ، ثم اشتبكوا فى معركة ، وعلىّ الباقى ..

وجرعوا الأقداح وأعينهم تعكس شر النوايا ..

وعقب صلاة العشاء زار الشيخ عبد ربه امامان من زملاء الدراسة يدعى أحدهما خالد والآخر مبارك . جلسا الى جانبه متجهمين ، وأخبراه بأن بعض الأئمـة قد فصلوا من وظائفهم لامتناعهم عن الاشتراك فى الحملة المدبرة . وقال خالد متذمرا :

ــ لم تخلق دور العبـادة للمهاترات السياسـية وتأييد الطغاة !

فشعر عبد ربه بأن حديث صاحبه ينكأ جرحه وتساءل :

ــ أتريد أن تتضور جوعا ؟

فساد صمت ثقيل .وأبى الشيخ أن يعلن هزيمته فتظاهر بأنه سيعمل عن اقتناع ليحافظ على كرامته أمامهما فقال :

ــ ما يظنه البعض مهاترات قد يكون هو الحق بعينه ..

ودهش خالد لانقلاب الشيخ فزهد فى المناقشة ، أما مبارك فقال باندفاع مأثور عنه :

ــ سنقتل مبدأ اسـلاميا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

فغضب عبد ربه عليه كما يغضب ضمـيره الذى يعـذبه وقال :

ــ بل سنحيى مبدأ اسـلاميا هو الدعـوة الى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ..

فتساءل مبارك فى استنكار شديد :

ـ أهؤلاء من تعدهم أولى الأمر ؟!

فتحداه عبد ربه متسائلا :

ـ خبرنى هل تمتنع عن القاء الخطبة ؟

قام مبـــارك متسخطا ثم غادر المكان وما لبث أن غادره خالد . ولعنهما الشيخ كما يلعن نفسه الثائرة ..

وقبيل منتصف الليل امتلأ حوش البيت السابع الى اليمين بالسكارى . جلسوا على مقاعد خشــبية متحلقين دائرة من الأرض الرملية سلط عليها ضوء كلوب ، وانسابت فى جنباتها نبوية وهى ترقص فى قميص نوم وردى ، وتلعّب فى يمناها نبوتا مكتسيا بخيط حلزونى مرصع بالورد . وصفقت الأكف على الواحدة . وتصاعدت من الأفواه المخمورة تأوهات بهيمية . واندس البرمجية فى الأركان يتربصون على حين لبد شلضم فى بئر السلم مركز العينين على مدخل البيت . واذا بحسان يدخل مصفف الشعر متألق الثغر فالتهمته نظرات شلضم النارية . وقف حسان ينظر الى نبوية حتى انتبهت اليه فحيته بابتسامة عريضة وحركة لعوب من بطنها الراقص وغمزة عين .

عند ذاك تسلطن حسان فمضى الى مقعد خال وجلس . وغلى الدم فى عــروق شلضم حتى تقلصت أطــرافه ثم أطلق صفيرا خفيفا . وفى الحال اشتبك اثنان من أعوانه فى معركة مفتعلة . وتداخل الآخرون فاشتدت المعركة وترامت حتى قام السكارى مذهولين وأخذوا يتدافعون نحو البـــاب . وطار





مقعـــد نحو الفانوس فهشـــمه فانقض الظلام على المـــكان كالكابوس ، واختلط الصراخ بوقع الأقدام وارتفع الصوت . وفى غمار الزوبعة الدائرة فى الظلمة شق الضجيج صراخ امرأة وما لبث أن أعقبتهـــا على الأثر تأوهات رجل من الأعمـــاق . وسرعان ما خلا الحوش الراكد تحت مثار الغبار الا من جثتين مطروحتين فى الظلمة الصامتة ..

وكان اليوم التالى هو الجمعة . ولما حان وقت الصلاة ازدحم الجامع بالمصلين على غير المألوف كل يوم ، اذ أن صلاة الجمعة تجذب اليه أناسا من الأطراف البعيدة كالخازندار والعتبة . وتلى القرآن ثم وقف الشيخ عبد ربه لالقاء الخطبة . وبدا أن المصلين فوجئوا بالخطبة السياسية مفاجأة لم تخطر على بال . تلقت آذانهم متململة الجمل المسجوعة عن الطاعة وواجب الولاء بارتياب وضيق . وما أن حملت الخطبة على الذين يغـــررون بالشعب ويدعونه الى التمرد خدمة لمصالحهم الشخصية حتى سرت فى المسجد همهمة ، وأصوات احتجاج وسخط ، واعترض البعض بأصوات مرتفعة ، وسب آخرون الامام ! . عند ذاك انقض المخبرون المندســـون بين المصلين على غلاة المعارضين وســـاقوهم الى الخارج وســـط ضجة هائلة من الاحتجاجات والغضب .

وغادر المسجد كثيرون . ولكن الامام دعا البـــاقين الى الصلاة ، وكانت صلاة حزينة تعلوها الكآبة ..

فى أثناء ذلك كانت حجرة بالبيت الثانى على اليسار من

الدرب تضم سمارة وزبونا جديدا . جلست سمارة على حافة السرير نصف عارية ، وتناولت خيارة من قدح مملوء الى نصفه بالماء وراحت تأكلها . وعلى كرسى أمام الفراش جلس الزبون خالعا جاكتته وهو يجرع الكونياك من الزجاجة . وجالت عيناه فى الحجرة العارية بنظرة غائبة حتى استقرت على سمارة فأدنى الزجاجة من فيها فتناولت شربة ثم أعادها . وقرعت التلاوة الآتية من الجامع أذنيه ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى ، ونظر الى الأرض . وتمتم فى امتعاض :

— لماذا يبنون جامعا فى هذا المكان ؟ .. هل ضاقت بهم الدنيا !

فقالت سمارة دون أن تتوقف عن قضم الخيارة :

— هذا المكان من الدنيا مثل بقية الأماكن ..

فجرع مقدار كأسين ، وأحد بصره وهو يتفحص وجهها وقال :

— ألا تخافين الله ؟

فقالت بشىء من الضجر :

— ربنا يتوب علينا ..

فضحك ضحكة مسترخية ، وتناول خيارة فدسها فى فيه . وفى تلك اللحظة كان عبد ربه يلقى خطبته فمضى يتابعه برأس متأرجح ، ثم ابتسم ساخرا وهو يقول :

— المنافق ! .. اسمعى ما يقول المنافق !

وجالت عيناه فى الحجرة حتى استقرتا على صورة لسعد زغلول قد بهتت من القدم ، فتساءل وهو يشير اليها :

— هل تعرفين هذا ؟

— ومن لا يعرفه !

فأفرغ بقية الزجاجة فى جوفه وقال بلسان ثقيل :

— سمارة وطنية وشيخ منافق !

فقالت متنهدة :

— يا بخته ! ، بكلمتين يربح الذهب ، ونحن لا نستحق قرشا الا بعرق جسمنا كله ..

فقال ممعنا فى السخرية :

— ثمة رجال محترمون لا يختلفون عنك فى شىء ولكن من يجد الشجاعة ليقول ذلك ؟

— وقاتل نبوية معروف للجميع ولكن من يجد الشجاعة ليشهد بذلك ؟

فهز رأسه أسفا وقال :

— نبوية ! .. المسكينة ! .. من قاتلها ؟

— شلضم الله يجحمه ..

— يا ساتر يا رب ، الشاهد عليه شهيد ، من حسن الحظ اننا لسنا المذنبين وحدنا فى هذا البلد ..

فقالت بضجر حاد :

— لكنك تضيع الوقت فى الكلام .. !

وصمم الشيخ عبد ربه على استغلال ما وقع له فى الجامع لصالحه فحرر شكوى الى الوزارة ضمنها ما وجه من اعتداء عليه بسبب خطبته « الوطنيـــة » ، وســـعى الى نشر الحادث فى بعض الصحف بصورة مبالغ فيها وبخاصة تدخل رجال البوليس للدفاع عنه والقبض على المعتـــدين . وبات عظيم الأمل فى أن تنظر الوزارة الى تحسين حالته بعين الاهتمام . غير أنه عندما حان وقت درس العصر لم يجد مستمعا على الاطلاق . ورمى ببصره من الباب الى دكان العصير فرأى الرجل منهمكا فى عمله فظن أنه نسى الدرس ، فاقترب من الباب ونادى بصوت باسم :

ـــ الدرس يا عم حسنين ..

والتفت الرجل على الصوت بلا ارادة لكنه سرعان ما أبعد رأسه فى تصميم وبحركة نبذ حاسمة . وخجل عبد ربه ، وندم على ما بدر منه من نداء ، وتراجع وهو يلعنه ألف لعنة .

وحين الفجر صعد المؤذن الى أعلا المئذنة فى ليـــل ساج رطيب ، وبدر ساطع ، وسكون مؤثر . وأذن هاتفا « الله أكبر » . وفى لحظات الاستعداد لمواصلة الأذان انطلقت صفارة الانذار فى عوائها المتقطع الرهيب فدق قلبه دقة عنيفة لوقع المفاجأة . واستعاذ بالله وهو يتمالك أعصابه واستعد من جديد لمواصلة الأذان حالما تتوقف الصفارة عن العواء ، اذ أن الانذار بغارة بات عادة ليلية تمر بسلام مذ أعلنت ايطاليا الحرب على الحلفاء . وهتف من الأعماق « لا اله الا الله » ، وغناها بصوت لا بأس به . واذا بانفجار يدوى مرعدا ارتجت له الأرض فغاص صوته

فى أعماقه . وتجمد فى موقفه وأطرافه ترتعش وعيناه تحملقان فى الأفق البعيد حيث لاح لهيب أحمر . وتراجع الى الباب مقتلعا قدميه من الأرض ومضى يهبط السلم بركبتين مخلخلتين . وبلغ أرض الجامع فى ظلام دامس فاتجه نحو الامام والخادم مستدلا عليهما بتهامسهما ، ثم قال بصوت متهدج :

ـ غارة جدية يا جماعة .. كيف العمل ؟

فقال الامام بنبرة مبحوحة :

ـ المخبأ بعيد ، ولعله اكتظ بكل من هب ودب ، والجامع متين البنيان وهو خير ملجأ ..

وجلسوا فى ركن وسرعان ما انطلقت أفواههم بالتلاوة . وترامت من الخارج أصوات شتى .. وقع أقدام مسرعة ، نداءات ، تعليقات مضطربة ، صرير أبواب وهى تفتح أو تغلق . ومرة أخرى انصبت على الأرض قذائف متلاحقة فزلزلت الأعصاب وخرست القلوب . وصاح خادم المسجد :

ـ الأولاد فى البيت ، بيت قديم يا سيدنا !

فقال الامام بصوت متحشرج :

ـ ربنا موجود .. لا تتحرك من مكانك ..

واندفعت مجموعة من الناس الى داخل الجامع وبعضهم يقول :

ـ هنا آمن مكان ...

فقال صوت غليظ :

ـ انه ضرب حقيقى لا كالليالى الماضية ..

فانقبض قلب الامام لدى سماعه الصوت . هذا الوحش الآدمى ، أليس وجوده بنذير شر ؟ . وجاءت جماعة جـديدة أكثف من الأولى ، وندت عنها أصوات نسائية غير غريبة عن الشيخ . وهتف صوت قائلا :

ــ طارت الخمر من رأسى ..

وأفلت من الامام زمامه فهب واقفا وهو يصيح بعصبية :

ــ اذهبوا الى المخبأ ، احترموا بيـوت الله ، اذهبـوا جميعـا ..

فصاح به رجل :

ــ اسكت يا سيدنا ..

وارتفعت ضحكة ساخرة غير أن انفجارا شديدا دوى حتى صك الآذان فضج الجامع بالصراخ ، وامتلأ الامام رعبا فصاح بجنون كأنما يخاطب القنابل نفسها :

ــ اذهبوا .. لا تدنسوا بيوت الله ..

فهتفت امرأة :

ــ يا عيب الشوم !

فصرخ الامام :

ــ اذهبوا عليكم لعنة الله ..

فاحتدت المرأة قائلة :

ــ انه بيت الله لا بيت أبيك !

وصاح الصوت الغليظ :

ــ اسكت يا سيدنا والا كتمت أنفاسك ..

وانتشرت التعليقات الحادة والسخريات اللاذعة حتى همس المؤذن فى أذن الامام :

ـــ أستحلفك بالله أن تسكت ..

فقال عبد ربه بتعثر من يجد مشقة فى النطق :

ـــ أترضى أن يكون الجامع مأوى نهؤلاء ؟ !

فقال المؤذن بتوسل :

ـــ ليس لديهم غيره ، أنسيت أنه حى قديم قد يتهاوى بالكمات لا بالقنابل ..

فضرب الامام راحته بقبضته وقال :

ـــ هيهات أن يرتاح قلبى لاجتماع كل هؤلاء الأشرار فى مكان واحد ، ان الله لا يجمعهم فى مكان واحد الا لأمر .. !

وانفجرت قنبلة فخيل الى حواسهم الملتهبة أنها انفجرت فى ميدان الخازندار ، والتمع لها بريق خاطف فى فراغ الجامع كشف عن أشباح مرتعدة لحظة قبل أن تبتلعها الظلمة العمياء مرة أخرى ، فأطلقت الحناجر عواء مزعجا ، وصوتت النساء ، والشيخ عبد ربه نفسه صرخ وهو لا يدرى . وتطايرت أعصابه فاندفع يهرول نحو باب الجامع . وجرى خادم المسجد خلفه يحاول منعه لكنه دفعه بقوة متشنجة وهو يصيح :

ـــ اتبعانى قبل أن تهلكا ..

ومرق من الباب وهو يقول مرتعدا :

ـــ لم يجمعهم الله فى مكان واحد الا لأمر ..

ومضى مهرولا يخوض ظلاما دامسا . واستمرت الغارة بعد ذلك عشر دقائق تساقطت فى أثنائها أربع قنابل . وشمل الصمت المدينة مقدار ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان ..

ومضت الظلمة ترق أمام البكرة الوانية ، ثم تبدت طلائع الصباح فى مثل حلاوة النجاة .

لكن الشيخ عبد ربه لم يعثر على جثته الا عند الشروق ..

# موعد

أسعد ما فى اليوم هو هذا الوقت من الليل . انتهت متاعب الواجبات ، استقر كل شىء فى موضعه على أحسن حال ، حتى المطبخ بات أنيقا نظيفا كأنه معروض للبيع ، الخادم آوت الى غرفتها لتنام ، لم يبق الا جلسة مريحة طويلة يبهجها الحب العائلى حول الراديو المردد لشتى المسرات . ولولو الصغيرة لا تنام ، لا تود أن تنام ، ولا أن تكف عن اللعب والشقاوة ، ولكن هذا السيد ، هذا الزوج السعيد ، ما باله ! . لولو العزيزة لا تدع لها فرصة للتفكير . انها ترمى بنفسها عليها بلا نذير ، فترتطم الرأس بالرأس ، أو تنشب الأظافر الصغيرة بالخد أو الرقبة ، وكافة المساحيق لا تنجح فى اخفاء آثار هذه الأظافر الصغيرة ، بنت لم تجاوز الثالثة ولكنها عفريتة بكل معنى الكلمة ، وكانت هى جديرة بأن تكون أسعد الناس بها لولا ما يبدو على الأب من تغير حقيقى . وها هى تختلس النظرات اليه رغم موقفها الدفاعى الدائم من لولو . وها هو غارق فى المقعد الكبير مطروح الرأس الى الوراء ، ينظر الى السقف تارة ، وتارة الى الراديو من فوق الزجاجة الذهبية السائل القائمة على ترابيزة أمامه . معهم لكنه ليس معهم . فى بعض رحلاته التجارية كان أقرب اليهم مما هو الآن . ماذا غيره ؟ .. ماذا طرأ عليه ؟ ! . وقلبها يحس المخاوف وهى بعيدة ولذلك فهو لم يذق الراحة منذ .. منذ كم من الوقت ؟ ! . يا الهى شد ما يبدو الوقت قصيرا أحيانا

اذا قيس بالأرقام على حين تتمزق الأعصاب من طوله تمزقا . وما هذه العادة الوحشية الجديدة ! . انه يجلس هذه الجلسة لا ليحادثها ولا ليلاعب لولو ولكن ليشرب الخمر . ويمعن فى الشراب ليلة بعد أخرى . ويفرط فى التدخين فدائما تتلوى حول رأسه سحاباته الشاحبة . ألا ما أفظع هذا كله . ويضاعف من الحسرة أنه مثال تغبط عليه فى حسن المعاشرة والنجاح فى الحياة . كهربائى محترم وصاحب دكان لبيع الأدوات الكهربائية واصلاحها. ولم يكن يضايقها أن يذهب الى القهوة الخديوية كل مساء ليلعب الطاولة ساعة أو ساعتين ثم يعود الى بيته حاملا ما لذ وطاب من حلوى أو فاكهة . يعود اليها ، والى لولو ، فيحيى جلسة عائلية دافئة بالمحبة والمسرة . هكذا مضت حياتها الزوجيـــة القصيرة السعيدة ، الى ما رصعت به لياليها من سهرات لطيفة فى بيوت الأسرة أو فى الســـينما وما يســـتتبع ذلك من تعليقـــات أو مناقشات تزيد الحياة بهجة وحيوية . وأما الخلافات التى كانت تتسرب بعض الأحيان الى حياتهما فلم تبلغ درجة خطيرة قط ، ولم يحدث أن تركت أثرا حتى الصباح . ترى هل ينطوى ذلك كله فى ذمة التاريخ ؟ .. هل .... يا لهذه الطفلة الصغيرة التى لا تتعب من الشقاوة أبدا .. انها تحمل على أبيها لكنها سرعان ما تصد عنه لفتور استجابته واستسلامه دون دفاع مثير ، حتى الكأس التى أراقتها عند تعلقها بالترابيزة لم تغضبه .

— يا عزيزى ، لماذا تشرب هكذا ؟

ليته ينفعل أو حتى يغضب فى سبيل أن يبوح بمكنونه :

ـــ لا ضرر فى ذلك ..

ـــ لكنه ضار بلا شك !

ـــ لا تصدقى ما يقال ..

ولم يمهلها لتتكلم فقال باسما :

ـــ مللت التسكع فى الخارج ، وأنا سعيد هكذا بين زوجتى وابنتى !

ـــ لكنك تبقى معنا لتشرب !

ـــ بل أستكمل هنائى بشىء من الشراب ليبعث الراحة فى القلب ..

يحاول أن يبدو طبيعيا ولكنها تراه بقلبها لا بعينيها ، وقلبها كرماد فى مهب الريح .

ـــ وماذا يتعب قلبك ؟

ـــ لعلها متاعب العمل وأنا لا أسمح لها بأن تفسد جلستنا الطيبة ..

هكذا الأسئلة والأجوبة كل مرة . ويبقى لها العذاب الصامت الذى يجد عبثا فى البحث عن مبرر لوجوده . وتلوح فى عينيه نظرة غريبة يرمق بها لولو . نظرة تذوب حنانا ورقة . نظرة تقبل وتعانق وتسفح الدمع . فكيف لا ترتعد رعبا !

ـــ ألا يحسن بك أن تنام فى الوقت الذى اعتدت أن تنام فيه ؟

ـــ لماذا تنام ؟

ضحكت ضحكة فاترة وحدجته بنظرة ارتياب :

ـ أنت ولا شك تسخر منى ..

ـ معاذ الله ..

ـ الحق انك تعذبنى ..

ـ لا سامحنى الله ان فعلت ..

وربتت خده برقة :

ـ كل شىء على ما يرام ؟

ـ نعم ..

ـ لا شىء يضايقك ..

ـ مطلقا ..

ثم قال برجاء :

ـ لا تقلقى نفسك بلا سبب ، أؤكد لك أنه لا يوجد فى حياتنا ما يدعو الى القلق ، ها أنا أجلس سعيدا فى أسرتى الصغيرة ، أشرب أحيانا ، وأحيانا أقرأ ، ماذا يقلق فى ذلك ؟ !

لم تكن القراءة هواية له . كان يلقى نظرة عجلى على الجريدة ، وتقرأ هى صفحة ثم تتركها فتتلقاها لولو ثم لا تتركها الا كومة من مزق . لكنه يقرأ الآن كتبا . وأى كتب ؟ . على حافة العالم ، الحاسة السادسة ، عالم الأرواح .

ـ أتحلم بأن تكون شيخ طريقة ؟ !

ـ هل عندك فكرة عن هذه الأشياء ؟

ـ حسبى ما وجدته فى الدين ..

ـ هذا صحيح ..

ـ فلماذا تقرأ هذا كله ؟

ـــ حب استطلاع وتسلية ..

حاولت كثيرا أن تقنع نفسها بأن كل شيء طبيعي وأن أوهامها هي غير الطبيعية ، لكنها كانت كمن يتجاهل الذارات دمل خفى .

ـــ خبرني كيف حال صحتك ؟

ـــ عال !

ـــ والعمل ؟ ! ، لا تخف عنى شيئا فأنا شريكة حياتك ..

ـــ ليس فى الامكان خير مما كان !

ـــ كيف أعرف سرك ! ؟

وربت على خدها وقبلها . كما كان يفعل فى الليالى السعيدة الخالية . ما أشد الفرق بين الحالين . انه يمثل ولكنه لا يستطيع أن يخفى أنه يمثل .

ـــ لا جديد طرأ عليك ؟

ـــ عدا شيء من الارهاق !

ـــ ما رأيك فى السفر ولو لأسبوع ؟

ـــ فكرة وجيهة ولكن لا داعى للعجلة كما تتوهمين ..

وحانت منها التفاتة الى المرآة فلمحته وهو يهم بالكلام بحال تدل على أنه استسلم للاعتراف . استصرخته فى الأعماق أن يتحلل . دعت ربها أن يأمره بالكلام . لكنه استرخى دفعة واحدة بسرعة تثير الحنق . وراح يقرأ .

ـــ عدت كما كنت أعزب !

ـــ أنا !

ـــ كأن لا شريك لك ، عش وحدك ، سأحزن حتى الموت !



ـــ ألا يتعب الانسان أحيانا ؟

ـــ ماذا عن رجل يشرب الخمر ويقرأ كتب الأرواح ؟

ـــ الخمر أيضا مشروب روحى ، هكذا يسمونها !

ـــ نضب معينى من الضحك ..

ـــ سوف تضحكين من نفسك عندما تتأكدين من ضلال أوهامك ..

ـــ قلبى لا يكذبنى قط .

وقال لنفسه ما أصدق قلبها . انها تنطق عن قلب صادق وا أسفاه . قلب ملئه خوف حقيـقى . قلب يكابد رهاصات أحزانه ووحدته الآتية . وهو يتعذب أيضا عذابا مضاعفا لنفسه ولها . وقلبه ينصـهر ويتطاير شررا وسـيتلاشى فى الفراغ . وأفكاره تحوم بجنون حول انحلال المـادة وتشعع الضـوء وانتشار الرماد وتبدد الهواء . لعله كان من الأرحم أن يجـد مهربا بعيدا عن بيته ، أن يشرب فى حانة من الحانات ، بعيدا عن الجلسة السعيدة التى يتشكل فيها جسده فى ثلاثة أجساد حارة محبوبة . ولكن حنينه القاسى وأشواقه الملتهبة ويأسه العميق منعته من الهرب وشدته الى مأواه الحنون . بل يود أحيانا لو يغلق دكانه ليجلس طوال وقته مع زوجته وطفلته ، عصمت ولولو ، وأن يقبلهما حتى يكل فوه ، أن يضمهما الى صـدره حتى يخذله سـاعداه ، أن يغرقهما بدموعه ، وأن يسـتحم بدموعهما . وكان بوده أن يمثل دوره بمهارة يخدع بها امرأته ولكن كان ذلك فوق طاقته . فهو يقرأ ويشرب ويختلس اليها

النظر ، يتحمل نظراتها المعذبة بصبر ، حابسا دمعه ، شادا على ارادته . ويصر على ذلك وهو يشعر بأن كل شيء يخصه هباء . الأبوة هباء ، الحب هباء ، الزوجية هباء . ويرى كل معنى وهو يتلاشى فى النسيان والضياع . وهو فى الحقيقة لا شيء يبكى لا شيئا ، البكاء نفسه لا حقيقى كالقراءة ، كالخمر ، كهـذه الأنغام الصادرة عن الراديو تنعى الحياة كلها . لم لا يجذبها اليه ويفضى اليها بكل سره ؟ . ولكن أى فائدة ترجى من ذلك الا أن تزيد من تعقيد الأمور واختلاطها وقسوتها ووحشتها ؟ . ولِم يحول جلسة المساء الى مأتم والغناء الى حداد . لن يؤخر ذلك ولن يقدم ، ولكنه سيهدم الأسرة هدما . أجل أن وحدته تزداد عمقا ويأسا ، لكنه لن يذعن للجبن والأنانية ، فعلى الأقل عصمت لم تفقد الأمل ، وها هى لولو تلعب وتغنى وتنطح وتخربش . انها الوحيدة التى تبدو جديرة بالحياة . تحياها ببساطة وبلا معنى ولا تفكير . وهى الوحيدة أيضا التى لا تعرف الموت ولا اليأس ويبدو كل شيء لعينيها العسليتين خالدا سعيدا خاضعا . حتى المنغصات البسيطة التى تطرأ على بحبوحتها لا تبقى الا لحظات . قد تتوارى وراء باب صارخة باكية ثم سرعان ما تظهر باسمة الثغر ولما تجف دموعهـا وفى عينيهـا نذر مشروعات جديدة للشقاوة والعفرتة . وعصمت لا تدرى شيئا عن لياليه ، فهى تجالسه حتى يحين موعد النوم ، ولما تظن أنه استسلم للنوم تطوى جفونها على أحزانها ، لكنه فى الحقيقة لا يغمض له جفن ، ويظل محملقا فى الظلام وخلايا رأسه تحترق بالأفكار المحمومة .

وهيهات أن يدرى أحد شيئا عن أحاديث الظـلام ، عن رعب الظلام ، عن التفكير فى الهاوية التى ليس لها قرار . فى الظلام تطمس معالم كل شىء الا الموت . الموت وحده يرى بلا ضوء ، وهو كالظلام لا شىء يؤخره عن ميعاده . واذا جال بالخاطر فقد كل شىء معناه وقيمته وحقيقته . ويتساءل وهو يكاد يحس تردد أنفاس زوجته ما العمل ؟ . ماذا يطلب من الحياة فى الأيام الباقية ؟ . ويجىء الجواب : كل شىء ، ويجىء الجواب : لاشىء ، وهنا يستوى كل شىء ولا شىء . ولكن النفس تأبى التسليم وتخشى الفراغ فتتعلق بالأحلام . يرى أنه لم يعد زوجا ولا أبا . انه طليق يجوب الآفاق . فوق طيارة تحلق فى الفضـاء ، فى سفينة تمخر عباب المحيطات ، على مركبات لا حصر لها ولا عدد . ينطلق من غابة الى بحيرة ، ومن جبل الى سهل ، يخوض الرياض والرمال والمدن ، يجوب مناطق حارة ينصهر بها الحديد ، وبقاعا متجمدة تتجمد فيها النيران ، ويرى من الناس أشكالا وألوانا . ان ذلك كله لا يطرد شبح الموت ولا يؤخره ولكنه يحول الأيام الباقية الى رحلة شائقة ومشاهد عجيبة وتسلية ساحرة . أو يرى نفسه جاريا وراء نوازعه ، يتقلب بين أمواج الشهوات العاتية ، وينعم بكل طيب ، وينتشى بكل مذهل ، ويمتع غرائزه بالمغامرة والاثارة والعربدة بل وبالانفعالات الرهيبة والعدوان العنيف . لكنها تظل أحلاما لأن الموت نفسه لم يستطع أن ينسيه أنه زوج وأنه أب وأنه بالتالى انسان . لذلك تتبدد الأحـلام ويبقى له السهاد ، بل ويواصل عمله فى الدكان ، ويثوب مشتاقا الى جلسته

العائلية المحبوبة ، ولكن لم يجد مفرا من الشراب ، ومن مطالعة كتب الأرواح ، سعيا وراء طمأنينة ولو تكن وهمية ، وسلام ولو على غير أساس . حتى ايمانه الراسخ انهـزم أمام الموت . ليس للشعر كثافة الموت وثقله . وهو يكاد يراه ويلمســه . وفظاعة التجربة حملته على دفن السر فى أعماقه ، على الانفراد به وحده ، وعلى كتمانه عن امرأته تعيسة الحظ ، فلتبق فى قلق هو على أى حال أهون من اليأس ، ولتمرح لولو فى جو خال من الحقيقة الرهيبة .

وذهب الى قهوة متاتيا على غير عادة . كان اليــوم عطلة الأحد ، والوقت عصرا ، والفصل خريفا ، فاتخذ مجلسا عند رأس المنعطف تحت البواكى . وقلب عينيه فى تطلع المنتظر حتى رأى رجلا ريفيا معمما يقبل نحوه فى عباءة سوداء . كان يشبهه الى حد كبير فتعانقا ثم جلسا حول المائدة والقادم يقول :

ـــ كيف حالك يا جمعة ؟ ، وما الحكاية ؟ ، لم بالله ضربت لى موعدا فى القهوة ؟ !

فقال جمعة وهو يبتسم فى ارتباك :

ـــ أتعبتك يا أخى ، أنا آسف جدا ..

ـــ ليس المجىء من القناطر بالأمر الشاق ولكن ماذا تعنى مقابلتنا فى القهوة ؟

وفكر جمعــة قليلا فيما ينبغى أن يقــول ، وكان الآخر يتفحصه بعناية فلم يمهله حتى يتكلم وقال :

ـــ خلاف عائلى ! ، يقطعنى ربنا ان لم يكن الأمر كذلك ، ماذا عن امرأتك ؟

فقال جمعة بصوت شاحب :

ـــ عصمت بخير ، لا خلاف بيننا على الاطلاق !

ـــ غريبة ! ، ولماذا لم تدعنى الى بيتك ؟

ـــ أريد أن أنفرد بك ..

ـــ بعيدا عن بيتك !

ـــ بعيدا عن كل شىء !

وعاد يتفحصه مليا ثم قال بقلق :

ـــ جمعة .. أنت ليس على ما يرام !

فصمت جمعة فعاد الأخ يقول بجزع :

ـــ خبر أخاك عما بك .

رفع اليه عينيه الذابلتين ، وقال :

ـــ أخى ، أنا فى مسيس الحاجة اليك ، سأعترف لك بكل شىء ، ويجب أن تصدقنى ، الحق انى سأموت فى خلال أشهر قلائل !

تجمدت قسمات الشيخ وعكست عيناه جميع صيغ الدهشة ، ثم غمغم :

ـــ ماذا قلت ! ، مريض ؟ ، كيف عرفت هذا ؟ ، هل ذهبت الى طبيب ؟

قال جمعة بهدوء نسبيا بعد أن أزاح الاعتراف عن صدره هما ثقيلا :

ـــ شرعت فى التأمين على حياتى ..

ـــ وبعـــد ؟

ـــ رفض الطلب ، ذهبت الى عدد وفير من الأطباء ، انى على يقين الآن من خطورة الحال ..

فندت عن الأخ ضحكة هازئة وقال :

ـــ لا أحد يمكن أن يكون على يقين من ذلك الا الله ..

فقال جمعة بفتور :

ـــ طبعـــا .. طبعا ، انه فوق كل شىء ، ولكنى على يقين من حالى ..

ـــ كلام فارغ ، أستطيع أن أحكى لك ألف حكاية تثبت أن كلام الأطباء ما هو الا هراء ..

فقال متنهدا :

ـــ وأستطيع أن أحكى لك ألفا أخر تؤكد العكس ..

واستقر صمت ثقيل . وجاء ماسح أحذية يدق صـــندوقه ولكن سرعان ما صرف ، وهبت نسمة رطيبة تحت البواكى على حين بدت العتبة كأنها تدور الى الأبد مع المركبات والناس . ثم قال الأخ بصوت غميق :

ـــ يجب أن تقتلع من رأسك هذه الأفكار السود ، هى مرضك الوحيد ، واذا أردت أن تطمئن حقا على نفسك فسافر معى الى القناطر لتزور شيخا عجيبا يقصده الأطباء أنفسهم فى الشدائد !

فقال جمعة فى بلاهة :

ـــ نعم ..

ـــ أراك تشك فيما قلت !

فاعتدل جمعة فى جلسته وقال :

— فلنؤجل هذا الى حين ، انما دعوتك لأمور هامة وعاجلة ..

— لكنى لا أحب لك أن تعايش أفكارك المدمرة ..

— لندع هذا الحديث جانبا ، الآن خذنى على قد عقلى وأصغ الى ..

فتمتم الأخ بمرارة :

— نعم .. !

فقال جمعة باشفاق ووجوم :

— عصمت ولولو ..

— عارف ، عارف أنك ستتحدث عنهما ..

وهمّ بالاعتراض ولكن جمعة أشار اليه بالسكوت وقال :

— لى شريك فى الدكان وهو رجل طيب مثلك ولكن العمل سيتطلب منك رعاية ، ولا بد لى من الاطمئنان على مستقبل أسرتى ، أنا آسف أن أحملك مسئوليات جديدة فى الحياة ولكن لا حيلة لى ، ثم ان لى نقودا فى البنك فلن أتركهما ...

— تتركهما !

— خذنى على قد عقلى من فضلك ، لن يحتاجا الى نقود ولكنهما سيكونان دائما فى حاجة الى رعايتك ..

ندت عن الأخ ضحكة أعرب بها عن استهانته أو عن تظاهره بذلك ، وشرع فى الكلام ولكن أوقفه عنه خروج سنجة الترام من السلك الكهربائى محدثة أزيزا حادا وتوهجا خاطفا فأخذ لحظة ثم قال :

— ها أنا أجاريك فى أوهامك ما دمت تريد أن آخذك

على قد عقلك ، أتحسب أننى فى حاجة الى هذه الوصية ! ، يا لك من طفل ، أنت أعلم الناس بمكانتك عندى ، فاطمئن الى كل الاطمئنان ، والآن وقد صارحتك فأرحنى بدورك ، لابد من سفرك الى البلد ولو لأسبوع ..

— بكل سرور ، فى بحر أسبوع على الأكثر ستجدنى عندك ان شاء الله ، والآن هيا بنا الى البيت ..

ولكن الأخ كان يعانى من الحديث اضطرابا باطنيا فانصدت نفسه عن كل شيء ، وأبى الا أن يعود من فوره الى المحطة ، وأصر على ذلك . وأراد أن يوصله ولكن الآخر قرر أن ينتهز فرصة وجوده فى القاهرة ليقوم ببعض زيارات هامة قبل السفر فتوادعا أمام القهوة ، ومضى الشيخ الى الناحية الأخرى من العتبة ، واتجه جمعة رأسا الى محطة الأوتوبيس . واستقل سيارة فدارت به دورتها ولكنها اضطرت الى التوقف عند الأزبكية أمام زحام اعترض الطريق . ولظر جمعة فرأى جمعا حاشدا — وآخذا فى التزايد أكثر فأكثر — حول سيارة متوقفة . أدرك لتوه أن حادثة وقعت . وأجال عينيه فى الجمع المحتشد لكنه جفل من امعان النظر فحول رأسه بعيدا . وما لبث الأوتوبيس أن تفادى من الزحام فشق سبيله الى ميدان الأوبرا .

وكان فى الجمع المحتشد حول الحادثة مساح أحذية ، وكان ينظر الى الجثة الممددة أمام السيارة بتفحص ودهشة ، ثم قال بصوت مرتفع لمن حوله :

— أنا رأيت هذا الشيخ منذ نصف ساعة فقط ، كان يجلس فى قهوة ماتاتيا مع واحد افندى ...

# قاتل

ما المخرج من هذه الوكسة ؟!

منذ خروجه من السجن وهو يعيش متسولا ، قرش من هنا وقرش من هناك ، بلا عمل ، وبلا أمل . وهو ليس بأول سجن ، ولا آخر سجن فيما يبدو ، ولكن الدنيا مصممة هذه المرة على مقاطعته . رفضه كل دكان عرض نفسه عليه ، وأعرض عنه كل رجل مأمول ، حتى تجار المخـــدرات أبوا أن يمنحوه ثقتهم . وتمضى الأيام يوما بعد يوم وهو يتدهور ويجن . ويجلس فى القهوة اذا هدّه الاعياء ، طمعا فى معرفة قديمة ، ولكنه ينسى حيث جلس ، لا يكلمه أحد ، ولا يقرب منه نادل ، وتلاحقه نظرات المعلم المتعضة ، حتى يرق له قلب الصبى فيجيئه خلسة بشىء من نفايات المعسّل المحروق . وغرق فى الأحلام كما لم يغرق من قبل . أطعمة الخلفاء وحسان الحريم وبحور الشراب وجبال السّطل . واسترجع أخيلة القصص التى كانت ترويها الرباب فى قهوة خان جعفر منذ ربع قرن أو يزيد . وهو ّم برأس متلبد الشعر ، وليس على الجسد المتورم بالأقذار الا جلباب متهرىء كالخيش تعشش فيه حشرات شتى . وكان يسكن فى جحر بدرب دعبس بالحسينية حجــرة فى حوش ربع قديم ، حيث ترقد أمه الضريرة نصف مشلولة ، وهى عجوز تعيش على صدقات الفقراء من الجيران ، هناك يأوى آخر الليل ، وتمضى الأيام وهو لا يلتفت اليها أما هى فلا تشعر له بوجود ولعلها لم

تعد تذكره على الاطلاق ، ولكنه لا يكف عن مغازلة الأحلام ، الأميرة والبحر والجبل وبحبوحة عيش لا يحسن تصورها ولو فى الخيال . وتساءل كثيرا عن المخرج من وكسته ، أين يذهب وماذا يفعل . وهو ذو الماضى الحافل بالأعمال . اشتغل شيالا ، وموزع مخدرات ، ولصا ، أما العراك فبسببه دخل السجن أول مرة . واستوفى الأربعين من عمره دون أن يهن له عضل ، وكان بوسعه أن يقتلع بيتا من أساسه ، ولكنه لا يأكل لقمة الا حسنة لوجه الله . وهذه ثالث مرة ينطلق فيها بعد سجن ولكنه لم يجد الدنيا من قبل مغلقة الأبواب كما يجدها هذه المرة حتى لتحدثه هواتف نفسه اليائسة أحيانا بأن يعود الى السجن ليستقر فيه بقية العمر . وقبيل خروجه من السجن أول مرة مات ابنه فى مستشفى الحميات ، وحينما كان فى السجن آخر مرة اختفت زوجته ، لا يدرى أين ذهبت ولا مع من هربت ، وقليل من النساء من يسعهن الاخلاص لزوج هوايته السجن . ترى ما هى المعجزة التى يمكن أن تجعل منه هارون « الرشيدى » ؟ . ان رأسه يدور من نشوة الأحلام الكاذبة . والدنيا فيما يظهر لم تعد بحاجة الى العضلات القوية . ولكن هل ضاع حقا وانتهى ؟!.

وكان يسير فى الزحام شبه نائم عندما ناداه صوت قوى قائلا :

ــ ولد يا بيومى ..

انتبه بعنف نحو الصوت كأنما يستجيب للسعة سوط . ثم وثب نحو صاحبه باستماتة وهو يبتسم ابتسامة عريضة توددا

وتذللا . ها هو انسان يناديه أخيرا . وهوى على يده ليلثمها وهو يقول :

— أهلا وسهلا بالحبيب .. أهلا بالمعلم على ركن سيد حيّنا كله ..

فسحب المعلم على يده بخشونة وقال وهو يحبك جبته :

— دعك من التواشيح يابن الذين ، لعلك تتحسر الآن على السجن وأيامه الحلوة .

فقال بيومى فى ملق :

— لولا وجود أمثالك فى الدنيا لتحسرت فعلا ..

— ها أنت تعود الى التواشيح !

وأشار اليه أن يتبعه ، ثم مضى الى الكارتة فاستقلها والآخر فى اثره وهو لا يصدق . وحرك المعلم اللجام فانطلقت الفرس الى طريق الجبل فى خلاء وأمن . وأدرك بيومى أنه مقبل على شىء كبير فلا يمكن أن يحل فى هذا المقام لغير ما سبب . وكانت الكارتة تنطلق فى سرعة هادئة مستعرضة جناح الجبل المتجهم ، مثيرة وراءها ذيلا من الغبار . وكان المعلم على ركن يلقى ناظريه الى الأفق ، مقطبا ، مشدود عضلات الوجه ، ثم تساءل بلا اكتراث :

— هل تقتل الحاج عبد الصمد الجبانى ؟!

استطال وجه بيومى من الدهش وتمتم :

— أقتل !

فقال الآخر ببرود :

ـ نعم يابن القديمة ..

يتكلم بكل استهانة وأقل ما يعنيه تفاهة الثمن !

ـ القتل شيء لم أجربه !

فشد اللجام وهو يقول ببرود :

ـ اذهب مع السلامة ..

لم يتحرك ولكنه تساءل بوجه متجهم :

ـ لحسابك يا سيد الناس ؟

فأرخى اللجام وهو يدارى ابتسامة قاسية ثم قال :

ـ لحسابى أو لحساب المعلم الكبير ، ماذا يهمك ؟

المعلم الكبير ! . الدهل محمود ! . صاحب وكالة الخيش وكبير تجار الكيف ! . انه يبالغ هذه المرة فى ابعاد الشبهة عن نفسه وعن رجاله وقد أحسن الماكر الاختيار !

ـ أنا خادم المعلم الكبير وخادمك ..

ـ دعنا من الثرثرة ، هل تقتله ؟

فضحك بيومى ضحكة كالزفرة وقال :

ـ فى الجنة ونعيمها !

ـ الله يجحمه ويجحمك ..

واعتبر بيومى الدعوة نوعا من المودة فضحك ، أما المعلم على فتساءل بخبث :

ـ لعلك لم تر النقود منذ خرجت من السجن ؟

ـ ولا قبل ذلك ..

ـ خمسون جنيها !

ــ خمسون !

ــ كلمة واحدة ..

ــ ولكنه قتل !

ــ يابن القديمة أنا لا أساوم ..

وهو يحاول ضبط انفعاله :

ــ سأحتاج الى نقود كثيرة . ولا تنس أمى العجوز ..

ــ أمك !

وقهقه عاليا وهو يستخرج من جيبه ورقة من ذات الخمسة الجنيهات ومد بها يده اليه قائلا :

ــ عربون ..

فهتف بيومى وهو يلتهمها بعينيه :

ــ لا ، وشرفك يا سيد الناس ..

فحدجه المعلم بنظرة قاسية فتخاذل قائلا :

ــ ليكن العربون عشرة جنيهات ..

ــ أتشك فينا يابن المجنونة .. ؟

ــ أبدا يا معلم ، ولكنها قد تكون كل نصيبى من الدنيا ..

ــ متى تقتله ؟

فكر بيومى مليا بسرعة ويقظة ثم قال :

ــ أمهلنى أسبوعا ، ... السبت القادم ..

ــ خبرك أسود ..

ــ يا سيد الناس أنا مضطر الى هجر الحسينية كيلا أثير شبهة حولى ، ويجب أن أتدبر الأمر وأرسم الخطة ، ولابد أن

أعيش هذا الأسبوع عيشة هنيئة فقد يكون آخر أسبوع لى فى الحياة ..

وأخرج المعلم ورقة أخرى من ذات الخمسة ، ومد بالورقتين يده وهو يتساءل :

ـــ أتعلم ماذا ينتظرك لو ماطلت أو تأخرت ؟

فقال بيومى ضاحكا وهو يطوى الورقتين :

ـــ لا أراك الله !

فشد اللجام حتى توقفت الكارتة وهو يقول :

ـــ مع السلامة .. لا تقترب ناحيتى أو ناحية أحد منا لأى سبب ..

وثب الى الأرض على حين مضت الكارتة بصاحبها . وقف ينظر اليها متوقعا أن يلتفت الرجل وراءه فيلوح له تحية ولكنه لم يلتفت . وضغط بيده على الورقتين وكل شىء يدور . رغم الفتونة والمجدعة لم تقبض يده على جنيه بالكامل الا فيما ندر . لكنه أيضا لم يقتل . ضرب وسرق ولكنه لم يقتل . لم يقتل وان تكن ضربته قاتلة . وهو يحب الحياة وان بدت أحيانا أمقت من الموت ولا يحب المشنقة . ولكن أى جدوى من التفكير وهو سيقتل ان لم يقتل . فليكن حذرا أشد الحذر ، وليرسم كل خطوة بأناة . ومهما تكن احتمالات الغـد فانه يدخر له أيضا أربعين جنيها . مبلغ لم يجر له فى حسبان . وقد يساعده المعلم الدهل فى الاتجار به فتتحقق الأحلام . وأعلن فى القهوة أنه سيهاجر من الحسينية سعيا وراء الرزق فقال له كل من سمعه :

« مع ألف سلامة » فى أصوات عالية وشت بارتياحهم للتخلص منه ، فذهب وهو يقول لنفسه : لذلك فأنتم تستحقون القتل . وقصد حمام السوق ، دخله هبابا وخرج منه انسانا . وابتاع جلبابا ولاسة وثيابا داخلية ومركوبا لأنه لم يجد حذاء جاهزا يتسع لقدميه الغليظتين . وجلس فى محل سيدهم الحاتى يأكل بنهم حتى أذهل النادل . وطاب كل شىء فقال لنفسه ليت ذلك يدوم بلا قتل . ولم يكن يعرف الحاج عبد الصمد الجبانى أى نوع من المعرفة ، غاية ما فى الأمر أنه لمحه مرات فى حياته بلا تركيز ولا اهتمام . عليه الآن أن يعرف كل شىء عنه وبخاصة الضرورى لانجاز مهمته . اهتدى الى بيته الكبير القديم بدرب الجماميز فدرس موقعه والطرق المؤدية اليه . وحام مرات حول وكالته بالمبيضة . وتفحص الرجل عن كثب حتى انطبعت صورته فى ذهنه وبخاصة وجهه الممتلىء المتألق بالحيوية وأناقته السابغة على جبته وقفطانه . والتقت عيناهما مرة فسرعان ما غض الطرف وزاغ عنه كالمطارد . وتساءل ترى ما الأسباب التى تحمل المعلم الدهل على التخلص منه ؟. أليس من حقه أن يعرف لماذا استحق هذا الرجل أن يقتله ؟ . لو كان سأل عن ذلك لسمع كلاما هو الصفع أو الركل . يا لهم من عصابة كأنها القضاء والقدر . وأنه لا يكاد يحل فى مكان حتى يلمح أحد رجالهم ذاهبا أو قاعدا أو قادما . وفى المساء سكر ، وفى سيرك الحملاوى سهر ، وعند عيوشة الفنجرية بات ليلته ، وقال لنفسه مرة أخرى ليت الحياة تمضى هكذا بلا قتل ، وأن يتزوج من جـديد ، ويخلف البنات



والبنين ، ويواصل الاتجار والربح ، ويأخذ حـذره فلا يرى لمخبر وجها . ترى ماذا ينتظره غدا ؟ . ولكن ماذا كان ينتظره مذ انطلق يلعب شبه عار فى أزقة الحسينية ، ومنذ انضم الى عصابة زلطة ، ومنذ اشترك فى معارك الدراسة والجبل والوايلية ، ومذ عمـل برمجيا فى الدروب الساهرة ، ومذ غامر بتوزيع المخدرات فى المقاهى ، ماذا كان ينتظره ؟؟

وجاء يوم السبت الموعود . استيقظ مبكراً ليستقبل أخطر يوم فى حياته . ملأ أحد جيبيه قطعا من اللحم البارد ووضع فى الآخر زجاجة ، ودس فى صدرته سكينا حادة النصل . أما المعلم الدهل ورجاله فسيلتزمون الدكاكين ويخالطون الناس نفيا للشبهات ، وهو أدرى بهذه الحيل الساخرة . هؤلاء الأوغاد المجرمون يجب أن يتلقى منهم أربعين جنيها لا طعنة انتقام غادرة . واستكان وراء شجرة على مبعدة أمتار من بيت الحاج عبد الصمد الجبانى . وجعل يختلس النظرات من الباب المغلق حتى فتح وخرج منه غلامان وبنت يتأبطون الحقائب المدرسية . كان بين الثلاثة شبه ملحوظ ولكن الذى لفت نظره بصفة خاصة هو الشبه الحاد بين الغـلام الأكبر وبين المعلم عبد الصـمد نفسه . وتذكر ابنه المتوفى الذى لم يشهد وفاته وتذكر حزنه الشديد عليه ، وأحزان الحياة جملة . وما لبث أن بدا المعلم عبد الصمد وهو يتقدم من الداخل الى نقطة وسط الحوش ، ثم وقف مستندا الى عصـاه وهو يفتل شاربه . واستدار الى الوراء وراح يخاطب شخصا لا يراه هو من موقفه ثم لوح له بيـده ، ثم اتجه نحو الباب

متمهلا ووجهه الممتلىء يتألق بما يشبه الابتسام . وتساءل عما يجعله يبدو مبتهجا بل وطيبا ؟ ! . ولكن من أدراه أنه ليس كالآخرين ! . كلهم مناكيـد لا يبتسمون ابتسامة حلوة الا لذويهم . مأمور السجن مثلا ، يا الهى هل يمكن أن ينسى هذا الرجل !! ، مع ذلك دعى مرة الى حجرته فوجده يمازح ابنه الذى جاء لزيارته ويغرقان فى الضحك معـا كأنما هو آدمى كالآدميين ! . تبع الرجل عن بعد وهو يشعر بقلق ود معه لو ينتهى كل شىء فى غمضة عين . والرجل يسير فى اطمئنان عجيب فلا يمكن أن يخطـر له ببال أنه لن يرى أسرته وأولاده مرة أخرى ، وأن هـذا اليوم هو آخر عهده بالحياة ، وأن الرجل المسكين الذى يتبعه وهو غافل عن وجوده .. هذا الرجل هو الذى سيقضى عليه ، هو الوحيد الذى يستطيع أن يتنبأ بمصيره القريب ، الذى ارتضى أن ينفذ فيه القضاء نظير خمسين جنيها لا غير ، فكم يملك الرجل الذى يسير أمامه من مضاعفات هذا المبلغ الذى بيع به ؟! .

وتخلص من أفكاره منتبها الى الطريق فتساءل أين يمضى الرجل ؟ . ليس هذا هو السبيل الى المبيضة ، لعله يقصد الى درب سعادة ، لِم لَم يذهب الى وكالته ؟ ، انه ذاهب الى هذا البيت الذى يقيمون سرادقا أمامه . جاء الرجل ليشيع جنازة . هذا واضح فيا له من صباح !.

وفعلا قصـد الحاج عبد الصمد بيت الميت فعـزى أهله بحرارة ، ثم توارى وراء الباب . واستمر بيومى فى سيره نحو

نهاية الطريق وعيناه تفتشان عن مكان يستقر فيه الى حين . وامتدت يده الى اللحم البارد المكوم فى جيبه كالتين المجفف فتناول قطعة وراح يمضغها . ونازعته نفسه الى جرعة كونياك ، ولكنه قاوم ذلك وأجله الى الساعات الحاسمة . وترامى اليه الصوات فى موجات متقطعة ، وبدرجات متفاوتة بين الشدة والاعتدال ، لكنه اشتد جدا حوالى الحادية عشرة ، منذرا باختفاء انسان نهائيا من الدنيا . وخرج النعش محمولا على الأعناق ، ومشى الحاج عبد الصمد وراءه فى الصف الأول وهو يجفف عينيه بمنديل كبير ، وتوقف بيومى عن التفكير مأخوذا بشدة الصراخ واكفهرار الوجوه ورهبة المنظر .

وتخفف من مشاعره فى الطريق ، ونظر الى صاحبه وهو ما زال يجفف عينيه ، ثم تساءل مرة أخرى لم يريدون قتله ؟!. لو مات الآن لكفاه قتله ، لكن تضيع الأربعون ، بل وربما طولب بالعربون ! . ولم يشأ أن يتبع النعش حتى المدفن فوقف عند أول الطريق .

ووردت على ذهنه فكرة غريبة وهى أن يعمل ترابيا . هى مهنة رابحة فيما يظن ، ولن يسأل — فيما يظن أيضا — اذا تقدم لها عن ماضيه ، ولن يجد صعوبة فى زيادة دخله بتجارة الكيف وما أروجه بين القبور ! . ومضى يحلم من جديد مستعينا بذلك على قتل الوقت حتى رأى الحاج عبد الصمد راجعا ، ثم تبعه حتى رآه يدخل الوكالة بالمبيضة فمال الى قهوة عند رأس الطريق وجلس . احتسى الشاى ودخن أكثر من

جوزة وأكل عددا من قطع اللحم ، وهو يراقب مدخل الوكالة دون انقطاع تقريبا . ورأى شخصا يغادرها فلم يصدق عينيه . المعلم الدهل محمود نفسه ! . الرجل الرهيب الذى لحسابه سيقتل عبد الصمد . بل رأى الحاج عبد الصمد وهو يودعه خارج الوكالة ، رآهما يتبادلان الضحكات ، وتواصل ذلك حتى استقر المعلم الرهيب فى عربته وانطلقت به . اذن لم تنقطع بينهما المودة ! . يا له من وغد ذلك الجبار الرهيب . هو جبار بلا ريب لكنه لا ريب كذلك فى أنه يفكر فيه — هو المسكين — طيلة وقته . ينتظر على قلق نتيجة عمله ، يتمنى له النجاح والتوفيق ، يجرى اسمه على لسانه مرات ، ويطوف بذهنه عشرات المرات ، ألا ما أخطر شأنك يا بيومى هذه الأيام ، واليوم أخطرها جميعا وهو آخرها أيضا ، أما الغد ؟ ! . وشدت قبضة على قلبه . غدا سيكون شيئا من آلاف الأشياء ، من ملايينها ، أو لا شىء ! . واذا فشل سيجد نفسه هدف نقمة وانتقام ، وستضيق به الأرض . والمسألة فى حقيقتها العارية أنه سيقتل رجلا لا يعرفه ولم تتصل بينه وبينه الأسباب على أى وجه كان لحساب أناس عقتهم لحد المرض .

لبث فى القهوة حتى الرابعة مساء ، وهنالك صدرت عن الوكالة حركة تنذر بالختام . دخلت اليها عربات اليد ، وتتابع خروج العمال ، وأغلقت النوافذ ، ثم خرج الحاج عبد الصمد يتبعه أربعة من الموظفين . تأهب بيومى للقيام ولكنه رأى

الجماعة مقبلة نحو القهوة ، ثم جلسوا على بعد أذرع من مجلسه والحاج يقول :

— فكرة ، أستريح هنا قليلا قبل أن أذهب الى المأتم ..

وجاءت المشروبات وراحوا يحتسون القهوة والشاى ، ثم تنهد الحاج عبد الصمد وقال :

— الله يرحمك يا سى عبده ، من يتصور أنك دفنت اليوم !

فقال أحد رجاله وهو يتحلب ريقه :

— كان بالأمس يجلس بيننا فى مثل هذه الساعة ..

— وكان ذلك كل يوم ..

واسترق بيومى اليه نظرة فرآه حزينا مكتئبا من الذكرى كآبة واضحة ، غير أن صحته بدت قادرة على جرف الأحزان جميعا . وله وجه ملىء وعنق مكتنظ وكرش ضخمة فلن يجد صعوبة فى اصابته . سينتهى كل شىء آخر الليل ، عند عودته من المأتم ، وفى الموضع الذى اختاره بعناية بعد معاينة مسكنه والطريق المفضية اليه .

وتساءل أحد رجاله :

— أسافر غدا الى الصعيد ؟

فقال الحاج :

— نعم انها صفقة تزن ثقلها ذهبا ، ولم نكن نحلم بها ..

— ولحد كم أدفع ؟

— كما اتفقنا بصفة عامة ، ولك أن تزيد حتى المائة ، انها صفقة مضمونة ..

وابتسم ابتسامة متألقة وكأنمــا نسى الحزن . واذا برجل يقوم وهو يقول فى اعتذار :

ــ آن لى أن أذهب حتى لا تفوتنى المغرب ..

فقال له :

ــ مع السلامة ، حرماً ، ولا تنس موعدنا غدا ..

ــ الساعة الخامسة !

ــ الساعة الخامسة ، وان تأخــرت لا تقلق ، سألحق بك حتما ..

واضطرب بيومى كلما تكلم الحاج عن يقين ، أو ضرب موعدا ، أو عكست عيناه الطمأنينة والثقة . لماذا يقتــل هذا الرجل ؟ . انه لا يعــرفه ، لم تكد تستقر صــورته فى ذهنه ، لا يكرهه ، ولا يحنق عليه ، ولا يأتيــه أى ضرر من ناحيتــه فلماذا يقتله ؟ . لكنه اذا لم يقتله قتل ، واذا قتله ابتسمت له الدنيا ، أو هكذا وعد . يحسن به ألا يستسلم للأفكار المثبطة للهمة . وليطمئن الى أنه سينجو من الاتهام تمــاما . أى سبب يدعوهم الى الاشتباه فى أمره ؟ . أى سبب هناك يدعوه الى قتل هذا الرجل ؟ . الحق ان اختياره لقتله هو فى ذاته عمل بارع يدل على عراقة المجرمين فى الاجرام .

وقال الحاج عبد الصمد :

ــ فى رمضان القادم وعليكم خير سيرتفع حظنا باذن الله الى مداه الأعلى ..

رمضان القادم ! .. شد ما يؤثر صوت الرجل فى أعصابه . انه يخشى أن يظل يسمعه حتى بعد الموت .

ووقف الحاج وهو يقول :

آن لى أن أذهب الى المأتم ، سلام عليكم ورحمة الله ..

وتبعه عن بعد حتى دخل السرادق بدرب سعادة ، فذهب بعيدا عن أضواء المصابيح ، ثم قبع فى ركن مظلم . كان على ثقة من أن صاحبه لن يغادر السرادق الا فى آخر زمرة تغادره فمضى يأكل قطع اللحم ويحتسى الكونياك . وهو اذا شرب توهجت أعصابه وتوثب قلبه وفارت جراثيم العدوان فى دمه . وترامت اليه التلاوة من مقرىء حسن الصوت فأمعن فى الأكل والشرب وغرق فى دوامة من الهذيان الباطنى . وجاء شرطى يتبختر فاقبض صدره . انه يستطيع أن يعرفه بأكثر من حاسة ، بالعين والأذن وبالأنف أيضا . ذلك أنه ينفث رائحة جلدية خاصة تذكره بنقطة البوليس ، والصفع واللعنات ، وزنزانة السجن ، والجرادل ، والبرش ، والظلمة المغرقة . مر به ، ثم عاد ، وتريث قبالته لحظة ملقيا بثقله على ساق واحدة ، ثم تأبط بندقيته وذهب . وتتابع الوقت حتى لم يبق فى السرادق الا آحاد . عند ذاك نهض وكل شيء يبدو أحمر فى عينيه . ومضى فى سبيل درب الجماميز وهو يتحسس السكين فى صدرته . البيت وما حوله خال نائم ، ولا دكاكين ولا مارة ، وثمة حارة بين شارع السمهرى والدرب ، غير قصيرة ، ضيقة ، مظلمة ، خالية فعند أولها لبد ، وفى مخبأ يرى بوضوح شارع السمهرى

والقادمين منه على حين تخفيه الظلمة عن الأعين ، وقف يتربص ويده قابضة على السكين والوقت يمر كحز الألم .

وعندما دقت ساعة قلعة الواحـدة لاح الحاج من بعيد ، ولكن كان بصحبته آخر . فترت دقات قلبه . وقال لنفسه انه اذا لم يجهز عليه الآن فلن يعـود الى المحـاولة مرة أخـرى وسيطارده الموت الى الأبد . تقدم الرجلان حتى توسطا شارع السمهرى وما زالا يتقـدمان حتى غص بالقنوط . أوشك أن يتقهقر من مكمنه مغـلوبا على أمره ولكن الرجلين توقفا عن المسير ، ثم تصافحا ، ومال الآخر الى عطفة جانبية ، وتقـدم وحده عبد الصمد . شد على أعصابه مرة أخرى وهو يسدد نحوه النظر . وتحفز بكل قوة وجارحة . وكان الحاج يسير متمهلا ، يد قابضة على العصا ، والأخرى تعبث بسلسلة الساعة ، والهدوء يكسو وجهه وما يشبه التعب أو الضجر . وخيل اليه أن ابتسامة خفيفة انسابت لحظة بين شـفتيه . وما زال يتقدم حتى دخل الحارة المظلمة فاختفت معالمه واستحال شبحا يسير فى الظلام . ولم يعد يفصل بينهما الا خطوة . استل السكين من صدرته . واشـتدت عليها قبضته ، واستجمع كل قواه ، ثم انقض عليه بسرعة خاطفة ، وطعنه طعنة قاسية ، لا مهادنة فيها ولا أمل ، ندت عن الرجل صرخة خافتة وترنح جسده الضخم مرة ثم سقط .

واندفع بيومى هاربا وهو ينتفض ، ناسيا السكين فى صدر الرجل ، ملوث العنق والجلباب — وهو لا يدرى — بالدم ..

# ضدّ مجهول

لم يكن بالشقة شيء غير مألوف يلفت النظر ، أو يمكن أن يفيد منه المحقق . كانت مكونة من حجرتين ومدخل ، وبصفة عامة كانت غاية فى البساطة . أما ما يستحق الدهشـــة حقا فهو بقاء حجرة النوم فى حال طبيعية واحتفاظها بنظامها العادى رغم أن جريمة قتل فظيعة ارتكبت بها . حتى الفراش ظل عاديا ، أو لم يتغير الا بالقدر الذى يطرأ عليه عقب النوم ، غير أن الراقد عليه لم يكن نائما ، كان قتيلا لما يجف دمه . وهو قد مات مخنوقا كما يدل على ذلك أثر الحبل حول عنقه وجحوظ عينيه ، وتجمد الدم حول أنفه وفيه . ولا أثر وراء ذلك لعراك أو لمقـاومة ، ســواء فى الفراش أو فى الحجرة أو فى بقيـــة الشقة ، كل شيء طبيعى ومألوف وعادى. وقف ضابط المباحث ذاهلا ، يقلب عينيه المدربتين فى الأنحاء ، يلاحظ ويتفحص ، ولا يخرج بطائل . انه يقف أمام جريمة بلا شك . والجريمة لا توجد الا بمجرم . والمجرم لا يستدل عليه الا بأثر . وها هى النوافذ مغلقة جميعا باحكام . فالقاتل جاء من الباب ، ومن البـــاب خرج . ومن ناحية أخرى فالرجل مات مخنوقا بحبل فكيف تمكن القاتل من لف الحبـــل حول عنقه ؟ . لعـــله تمكن من ذلك وضحيتـــه نائم ، فهذا هو التفسير المقبول لعدم وجود أى أثر للمقاومة . وثمة تفسير آخر ، أن يكون غـــدر به من وراء حتى أجهز عليـــه ، ثم أنامه فى فراشه وسجاه وأعاد كل شيء الى أصله وذهب غير تارك أى

أثر ! . أى رجل ! ، أية أعصاب ! . يعمل بأناة وروية وهدوء واحكام كما يقع فى الخيال . يسيطر على نفسه وعلى القتيـل وعلى الجريمة وعلى المكان كله ثم يذهب فى سلام ! . أى قاتل هذا ! . ورتب خطوات التحقيق فى ذهنه ، الباعث على الجريمة ، التحقيق مع البواب ، والخادمة العجوز ، وافترض افتراضات شتى ، وقاوم ما استطاع انفعالاته الشديدة ، ثم عاد الى التفكير فى المجرم الغريب ، الذى تسلل الى الشـــقة ، وأزهق روحا ، ومضى بلا أثر ، كأنه نسمة هواء لطيفة أو شعاع من الشمس . وفتش الصوان والمكتب والثياب ، فوجد حافظة نقود وبها عشرة جنيهات ، كما وجد الساعة وخاتما ذهبيا . يبدو أن السرقة لم تكن الباعث على الجريمة ، فما الباعث اذن ? ! .

واستدعى البواب لاستجوابه ، وهو نوبى طاعن فى السن ، يعمل فى العمارة الصغيرة بشارع البراد بالعباسية منذ عشرات السنين . وقد أدلى بأقوال لها أهميتها ، فقال عن القتيـــل انه مدرس بالمعاش ، يدعى حسن وهبى ، فوق السبعين ، يعيش وحده مذ توفيت زوجته ، وله بنت متزوجة فى أسيوط وابن طبيب يعمل فى بور سعيد ، وهو أصلا من دمياط ، وتقوم على خدمته أم أمينة فتجيئه حوالى العاشرة صباحا وتغادره حوالى الخامسة مســـاء .

ـــ وأنت ألا تؤدى له بعض الخدمات أحيانا ?

فقال العجوز بسرعة وتوكيد :

— ولا مرة فى السنة ، أنا لا أراه الا أمام الباب عند ذهابه وايابه ..

— خبرنى عن يوم أمس .. ؟

— رأيته وهو يغادر البيت فى الثامنة .

— ألم يكلفك بتنظيف الشقة ؟

فقال الرجل بشىء من العصبية :

— قلت ولا مرة فى السنة ، ولا مرة فى حياته ، أم أمينة تجىء فى العاشرة فتطهو طعامه وتنظف الشقة وتغسل الثياب ..

— هل ترك نوافذ شقته — أو بعضها — مفتوحة ..

— لا أدرى ..

— ألا يمكن أن يدخل أحد من النافذة ؟

— شقته فى الدور الثالث كما ترى ، فالأمر غير ممكن ، ثم ان العمارة محاطة بالعمارات من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة تطل على شارع البراد نفسه !

— استمر فى حديثك ..

— غادر البيت فى الثامنة ثم رجع فى التاسعة ، وهذه هى عادته كل يوم منذ أكثر من عشر سنوات ، ويبقى بعد ذلك فى شقته حتى صباح اليوم التالى ..

— ألا يزوره أحد ؟

— لا أذكر انى رأيت أحدا يزوره عدا ابنه أو ابنته ..

— متى زاراه لآخر مرة ؟

— فى العيد الكبير ...

— ألا يزوره اللبان أو بائع الجرائد ؟

— الجرائد يعود بها بعد مشوار الصباح ، أما الزبادى فتتسلمه أم أمينة عصرا .

— هل تسلمته أمس ؟

— نعم ، رأيت الغلام وهو يصعد الى الشقة ورأيته ذاهبا ..

— متى غادرت أم أمينة الشقة أمس ؟

— حوالى المغرب ..

— ومتى جاءت اليوم ؟

— حوالى العاشرة ، ودقت الجرس فلم يفتح الباب ..

— هل خرج اليوم كعادته ؟

— كلا ..

— متأكد ؟

— لم أره خارجا ، وكنت بمجلسى عند الباب حتى جاءت أم أمينة .. ثم عادت الى بعد ربع ساعة لتخبرنى بأنه لا يجيب فصعدت معها ، ودققت الجرس وطرقت الباب ولما لم يجب ذهبنا الى القسم ..

وقال الضابط لنفسه ان هذا البواب لا يستطيع أن يخنق دجاجة ، ولا أم أمينة ، ولكنهما قد يسهلان ادخال شخص ما واخراجه ، لكن لم قتل الأستاذ حسن وهبى ؟ . هل ثمة سرقة ثمينة خافية ؟ .. هل تركت الحافظة سليمة للتضليل ؟ ! . وهل وجود مفتاح الشقة بدرج المكتب لعبة أخرى ؟ .

وقالت أم أمينة انها خدمت فى بيت المدرس منذ ربع قرن ، خمسة عشر عاما ، على حياة زوجه ، وعشرة أعوام بعد وفاتها ، ولكن المرحوم قرر أن تبيت فى منزلها منذ ترمله . وهى أرملة ، وأم لست من النساء ، كلهن متزوجات من عمـال وأصحاب حرف ، وأدلت بعناوينهن جميعا .

ـــ كان أمس بصحة جيدة ، قرأ الجرائد ، وتلا جزءا من القرآن بصوت مسموع ، وعندما تركت الشقة كان يستمع الى الراديو ..

ـــ ماذا تعرفين عن أهله ؟

ـــ من دمياط لكنه منقطع الصلة بهم تقريبا ، ولا يزوره أحد الا ابنه وابنته فى المواسم والأجازات ..

ـــ هل تعرفين له أعداء ؟

ـــ أبدا ..

ـــ ألا يزوره أحد فى بيته ؟

ـــ أبدا ، وفى أحوال نادرة كان يجلس صباح الجمعة فى القهوة مع بعض زملائه أو مع بعض تلاميـذه القدامى ..

وتساءل الضـابط هل يمكن أن تقع جريمة بلا باعث ودون أثر ؟ . واستكمل الاجراءات الواجبة ففتش بمساعدة معاونيه مسكن البواب ، وبيوت أم أمينة وبناتها الست ، ثم استدعى أصحاب المرحوم القلائل ، ولكن لم يدل أحد منهم بشىء ذى بال ، وبدا مصرع الرجل لغزا محيرا للألباب . وشاع الخبر فى الشارع ، ثم نشر فى الجرائد فعلمت به العباسية كلها وأسف له

كثيرون . وأكد الطبيب ابن القتيل أن والده لا يملك شيئا ثمينا على الاطلاق ، وأن حسابه فى البنك لا يتجاوز المائة الجنيه وفرها لحاجة طارئة ثم لخرجته آخر الأمر . وأكد أيضا انه ليس له أعداء ، وأن قتله قد يكون نتيجة طمع فى ثروة وهمية خمن المجرمون وجودها فى مسكنه . وجرى تحقيق دقيق مع البواب وأم أمينة ، لكنه لم يؤد الى شيء فأفرج عنهما بلا ضمان . ووجد ضابط المباحث نفسه فى حيرة ضبابية وعانى احساسا بالهزيمة لم يمر به من قبل . كان ذا تاريخ مشرف فى مكافحة الجرائم شهد به الريف والبنادر ، وفى الجملة كان من الضباط ذوى السمعة العالية . وهذه أول جريمة ينهزم أمامها هزيمة مطلقة بلا بارقة أمل ، ولا عزاء . وبث عيونه فى أوساط المشبوهين فى الجبل وأطراف الوايلية وعرب المحمدى لكنهم لم يرجعوا بفائدة . وقرر الطبيب الشرعى أن الأستاذ حسن وهبى مات خنقا ، وتفحص جميع ما يخصه من أشياء بأمل العثور على بصمة أو شعرة أو أى أثر مما يتركه المجرمون ، ولكن مجهوداته ضاعت هباء ، ووقف الجميع أمام فراغ صامت .

ومن شدة الهزيمة شعر الضابط محسن عبد البارى بالخجل وتنغص عليه صفوه . وكان يقيم بشارع يشبك غير بعيد من القسم ، فلما لاحظت زوجته كربه قالت له برقة :

— لا يجوز أن تحرق دمك بلا سبب ..

فلاذ بالصمت ومضى يسلى همه بالقراءة . وكان مغرما بقراءة الشعر الصوفى كأشعار سعدى وابن الفارض وابن

العربى ، وهى هواية نادرة بين ضباط المباحث ، ولذلك أخفاها حتى عن خاصة الأصدقاء . وظل الحادث حديث العباسـية ، لغموضه المحير ، ولأن المرحوم كان مدرسا لكثيرين من شباب العباسية وكهولها . ولكن بمرور أسبوع أو نحوه غاص الخبر فى بحر النسيان المخيف ، وحتى محسن عبد البارى قيده ضد مجهول ، وقال لنفسه وهو يزدرد هزيمته المرة « مجهول ! .. هذا هو حقا المجهول ! » .

وبعد شهر دعى الضابط الى سراى قديمة بشارع العباسية العمومى بسبب جريمة مشابهة ! كأن الجريمة الأولى وقعت من جديد فلم يكد محسن يصدق عينيه . وكان القتيل لواء قديما من رجال الجيش ، وكان يعيش مع أسرته المكونة من زوجة فى الستين وأخت أرملة فى الستين أيضا ، وابنه الأصغر وهو طالب جامعى فى العشرين من عمـره ، وكان يقيم فى السراى أيضـا البواب والبساتى وسائق السيارة وطاهية وخادمتان .

وجد اللواء صباحا فى فراشه كالنائم ، شأنه كل يوم ، الا أن الوقت تأخر به عن المألوف مما دفع بزوجته الى تفقد حاله . لكنه لم يكن نائما ، بل مخنوقا ، وأثر الحبل محفور حول عنقه ، وفى عينيه جحوظ فظيع ، وحول الفم والأنف دم لزج . أما الحجرة فلم يختل بها نظام ، ولا الفراش نفسـه ، ولم يسمع صوت فى الليل ليوقظ النائمين فى الطابق معه من أهله ، وجملة القول أن الضابط وجد نفسه مرة أخرى أمام اللغز القاتل الذى

سحقه منذ شهر فى مسكن المدرس حسن وهبى ، أمام المجهول بصمته وغموضه وغرابته وقسوته وسخريته واستحالته .

— هل وقعت سرقة ؟

— كلا ..

— له أعداء ؟

— كلا ..

— والخدم ، أكانت علاقته بهم طيبة ؟

— جدا .

— أتشكون فى أحد ..

— أبدا ..

ومضى الضابط فى الاجراءات بلا أمل ، عاين السراى معاينة دقيقة ، واستجوب الأهل والخدم . وكان يتوجس خيفة من مجهول ، ويشعر بأن مؤامرة تدبر فى الظلام للقضاء على ضحايا كثيرين ، وعلى سمعته وكافة القيم فى حياته ، وشعر أيضا بأن ثمة لغزا يوشك أن يخنقه بثقل غموضه ، وانه اذا منى بالفشل مرة أخرى فلن يصلح للحياة ولن تصلح الحياة لأحد . ولخطورة شأن القتيل جاء نفر من كبار رجال المباحث للاشراف على التحقيق بأنفسهم . وقال أحدهم باستغراب :

— توجد جريمة بلا شك ، ولكن كأنها ترتكب بلا مجرم . !

— بل المجرم موجود ، ولعله أقرب الينا مما تتصور ..

— كيف ارتكب جريمته ؟

— يطوق العنق بحبل دقيق ثم يشد عليه حتى يزهق

الروح ، ولكن كيف يصل الى مكان جريمته ، وكيف يذهب دون أن يترك أثرا ؟

ـ وما الباعث على القتل ؟

ـ بواعث القتل متعددة تعدد البواعث على الحياة !

ـ هل يمكن أ ن يقتل أحد بلا سبب . ؟

ـ اذا كان مجنونا فانه يقتل بلا سبب ، أو بلا سبب مما نقتنع به ..

ـ ما العلاقة بين المدرس واللواء ..

ـ كلاهما قابل للموت .. !

ونشر الخبر فى الصفحات الأولى من الجرائد فى عناوين مثيرة فاهتز له الرأى العام ، وبصفة خاصة أهل العباسية . وكان اللواء معروفا منذ عهد الانتخابات حيث رشح نفسه مرارا فانتخب مرة عضوا بمجلس الشيوخ . وجند محسن جميع المخبرين للبحث والتحرى ، وأصدر اليهم تنبيهاته المشددة ، وانكب على العمل برغبة محمومة فى الظفر . وعاد الى بيته آخر الليل خائر القوى والنفس . وصمم على كتم همومه عن زوجته التى بدأت فى ذلك الوقت تعانى متاعب الحبل . وكان أخشى ما يخشاه أن ينقل من قسم الوايلى موصوما بالهزيمة ليحل محله آخر كما كان يحل هو محل آخرين فى الريف على عهد التوفيق والنصر . وعبثا حاول أن يسرى عن نفسه بمطالعة الشعر اذ ثبت ذهنه على الجريمة التى أمست رمزا على هزيمته .

من يكون هذا القاتل الرهيب ؟. لا هو لص ولا هو منتقم

ولا هو مجنون . المجنون قد يقتل ولكنه لا ينفذ جريمته بهذا الاعجاز الساحق . انه يقف أمام لغز قوى قهار لا نجاة من عبثه ، فكيف يتحمل مسئولية حماية الأرواح حياله ؟ !

ومل الناس — وبخاصة أهل العباسية — الخوض فى الموضوع ، وفتر اهتمامهم به ، وهدأت النفوس بعض الشىء ، واستحال جزع الضابط حزنا رزينا منطويا فى أعماق النفس .

واذا بالجريمة الثالثة تقع !

وجاء وقوعها بعد مصرع اللواء بأربعين يوما . وكان مسرحها بيتا متوسطا ببين الجناين ، وضحيتها شابة فى الثلاثين ، زوجة لمقاول صغير وأما لثلاثة أطفال . وكالعادة وجد كل شىء على مألوف حاله ، عدا أثر الحبل الملتهب حول العنق والدم حول الفم والأنف وجحوظ العينين ، ولا أثر بعد ذلك لشىء . وأدى محسن واجبه الروتينى بروح خامد يائس وقد آمن بأن عذابه لن ينتهى أبدا ، وبأنه نُصب هدفا لقوة لا ترحم . وقالت أم القتيل وكانت تقيم معها :

— دخلت فى الصباح لأتفقد حالها فوجدتها ...

وخنقتها العبرات ، فسكتت حتى انحسرت عنها موجة البكاء وقالت :

— كانت المسكينة مريضة بالتيفود منذ عشرة أعوام ..

فهتف محسن داهشا :

— مريضة ؟ !

ــ نعم ، وكانت حالتها خطيرة ، لكنها ... لكنها لم تمت بالتيفود !

ــ ألم تشعرى بحركة فى الليل ؟

ــ أبدا ، كان الأطفال نائمين فى هذه الحجرة ، ونمت أنا على هذه الكنبة على مقربة من حجرتها لأسمعها اذا نادت ، وكنت آخر من نام فى البيت وأول من استيقظ ، فدخلت الحجرة فوجدتها يا كبدى كما ترى ...

وجاء الزوج عند الظهر عائدا من الاسكندرية على حال شديدة من الحزن . ومضى وقت قبل أن يجد نفسه فى حال تسمح له بالاجابة على أسئلة الضابط . ولم يكن لديه قول يمكن أن يفيد التحقيق . كان بالاسكندرية لبعض الأعمال ، أمضى نهار الأمس فى القهوة التجارية مع أناس سماهم ، وبات ليلته عند أحدهم بالقبارى حيث تلقى البرقية المشئومة . وصاح الرجل وهو يتأوه :

ــ يا حضرة الضابط ، هذه حال لا تطاق ، ليست الأولى ، قتل المدرس واللواء قبل ذلك ، أين البوليس ؟ ، الناس لا يقتلون بلا قاتل ، وكان عليكم أن تقبضوا عليه ..

لم يتحمل محسن الطعنات فانفجر هاتفا :

ــ لسنا سحرة ! .. ألا تفهم ؟ !

وسرعان ما ندم على ما بدر منه ، وعاد الى القسم وهو يقول لنفسه : « الحق انى أول ضحية للمجرم ! » وود لو يستطيع أن يعلن عجزه . هذا المجرم كالهواء ، وحتى الهواء يترك فى البيوت



أثره . أو أنه مثل حرارة الجو ، ولكنها أيضا تترك أثرها . وحتام تقيد الجرائم ضد مجهول ؟ ! . وطوق العباسية الفزع . وزادته الصحافة اشتعالا . ولم يعد للمقاهى من حديث غيره ، جرائم الخنق ومرتكبها الرهيب المجهول ، انه خطر داهم وليس أحد بمأمن منه ، وتبددت الثقة برجال الأمن . وانحصرت الشبهة فى المنحرفين والمجانين باعتبارها موضة هذه الأيام . وتبين من البحث أن أحدا من نزلاء مصحة الأمراض العقلية لم يهرب . ووردت على القسم رسائل من مجهولين ففتشت بسببها بيوت كثيرة ولكن لم يعثر فيها على أحد ذى خطورة ، وكان أكثر المصابين من الطاعنين فى السن . وأبلغ البعض عن شاب معروف بالهوس والشذوذ من سكان شارع السرايات فألقى القبض عليه وسيق الى التحقيق ولكن ثبت أنه فى ليلة مقتل اللواء كان مقبوضا عليه فى قسم الأزبكية لتحرشه بفتاة فى الطريق ، فأطلق سراحه . ضاع كل مجهود هباء ، وقال محسن فى أسى :

ـــ المتهم الوحيد فى هذه القضية هو أنا !

هكذا كان أمام نفسه ، وأمام أهل العباسية ، وأمام قراء الصحف . وتطايرت اشاعات لا يدرى أحد كيف تطايرت . قيل ان المتهم معروف لدى رجال الأمن ولكنهم يتسترون عليه لصلته القريبة بشخصية هامة . وقيل أيضا انه لا يوجد متهم فى الحق والواقع ، ولا جريمة ولكنه مرض خطير مجهول ، وأن معامل وزارة الصحة تعمل ليل نهار فى الكشف عن سره . وتفشت الحيرة والبلبلة بين الناس .

ويوما — وكان قد مضى على مقتل السيدة شهر أو نحوه — أبلغ الشرطى الديدبان بقسم الوايلى أنه عثر على جثة فى العطفة الملاصقة للقسم . خبر لم يسمع عن مثله من قبل . وهرع الضابط محسن عبد البارى الى مكان الجثة وكان بوسعه — لو أراد — أن يعاينها من نافذة حجرته ، وجد جثة رجل شبه عار ، متسولا عن يقين ، ملقى لصـق جدار القسم ، وكاد يصرخ من شـدة الانزعاج حين وقعت عيناه عن أثر حبل الخنق حول الرقبة ! . رباه .. حتى هذا الشحاذ ! . وتفحص جلبابه كأنما ثمـة أمل فى العثور على شىء . ودعى شيخ الحارة للتعرف عليـه فقرر أنه متسول من الوايلية الصغرى ، بلا مأوى ، ويعرفه الكثيرون . وجرى التحقيق مجراه لا سعيا وراء أمل ولكن تغطيـة للهزيمة المزرية . وسئل سكان البيوت القريبة من مكان الجريمة ولكن أى جديد ينتظر ؟ .. ولم لا يسأل المقيمين فى القسم أيضا وهو الملاصق للجريمة ؟ ! . وانتشر المخبرون فى مواطن الشـبهات ولكنهم كانوا يبحثون عن لا شىء ، عن خيال ، عن روح . وكرد فعل للخنق الذى غمر النفوس سيق المشبوهون والمنحرفون بالعشرات الى الحجز حتى خلت منهم العباسـية جميعا ولكن ما الفائدة ؟ . وزيد عدد الشرطة بالشوارع وتضاعف عددهم بالليل . ورصدت الداخلية ألفا من الجنيهات مكافأة لمن يرشد الى القاتل الخفى . وتناولت الصحافة الموضوع بقوة مثيرة فى صفحاتها الأولى . وتضخم هذا كله فى نفوس أهل العباسية حتى استحال الى أزمة مروعة . ركبهم الفزع ، وعذبتهم الأوهام ،

واقلبت أحاديثهم الى هذيان ، وهجر القادر منهم حيه ، ولولا أزمة المساكن وظروف المعيشة القاسية لخلت العباسية من أهلها . ولكن لعل أحدا لم يتعذب كما تعذب الضابط محسن عبدالبارى أو زوجته الحبلى السيئة الحظ . وقد قالت له على سبيل العزاء والتشجيع :

— لا لوم عليك ، هذا شيء يعجز خيال البشر ..

— لم يعد لبقائى فى وظيفتى معنى ...

فقالت بجزع :

— دلنى على تقصيرك ..

— يستوى المجهود الضائع والتقصير ما دام لا يحفظ روحا ولا يدفع أذى ..

— ستنتصرون فى النهاية كالعادة ..

— أشك فى ذلك ، فهذا شيء خارق للعادة ..

ولم ينم تلك الليلة . ظل ساهرا يفكر ونازعته رغبة فى الهرب الى عالم شعره الصوفى . حيث الهدوء والحقيقة الأبدية . حيث تذوب الأضواء فى وحدة الوجود العليا . حيث العزاء عن متاعب الحياة وفشلها وعبثها . أليس عجيبا أن ينتسب الى حياة واحدة عابد الحق وهذا المجرم الضارى ؟. اننا نموت لأننا نفقد حياتنا فى الاهتمامات السخيفة . ولا حياة ولا نجاة لنا الا بالتوجه الى الحق وحده .. !

ولم يكد يمضى أسبوعان حتى وقع حادث لا يقل غرابة عن سابقه ، اذ سقط جسم من آخر عربة للترام رقم ٣٣ أمام شارع

عشرة آخر الليل . وأوقف الكمسارى الترام ومضى نحو مصدر الصوت ، ولحق به السائق ، فرأيا أفنديا ممددا على الأرض . ظنا أنه سكران أو مسطول أو عثرت به القدم ، وسدد السائق نحوه بطاريته اليدوية وسرعان ما ندت عنه صرخة ، ثم صاح وهو يشير الى عنق الرجل :

— انظر ..

فنظر الكمسارى فرأى أثر الحبل المشهور . وارتفع صوتاهما فهرع اليهما عـــدد من الشرطة والمخبرين المنتشرين فى الزوايا والأركان . وفى الحال تم القبض على شخصين تصادف مرورهما قريبا من مكان الحادث وسيق الجميع الى القسم . وكان للحادث رجة فظيعة ، وكان على محسن أن يبذل مجهودا عنيفا يائسا آخر للضياع . وأفرج عن أحد المقبوض عليهما اذ تبين أنه ضابط جيش بملابس ملكية ، وجرى التحقيق مع الثلاثة الآخرين دون أن ينتهى الى شىء . وذاق محسن مرارة الهزيمة والخيبة للمرة الخامسة حتى خيل اليه أن المجرم يتقصده هو بالذات بألاعيبه الجهنمية . وذكرته شخصية المجرم برجل الروايات الخفى ، أو بمخلوقات الأفلام السينمائية التى تهبط الى الأرض من الكواكب الأخرى . وقال لزوجته وهو يغلى بأحزانه :

— من الحكمة أن تذهبى الى بيت والدك بالهرم بعيدا عن هذا الجو المشحون بالعذاب والرعب .

لكنها تساءلت فى احتجاج :

— أليس من المخجل أن أتركك على هذه الحال ؟

فقال وهو يتأوه :

ـــ ليتنى أجد سببا وجيها لالقاء اللوم على نفسى أو على أى من معاونى ..

ونوقشت المسألة فى الصحف على نطاق واسع فى مقالات مسهبة بأقلام علماء النفس ورجال الدين . أما العباسية فقد اجتاحها الذعر ، وأمست تقفر مع المغرب من سكانها سواء فى المقاهى أو فى الطرق ، وبات كل وكأنه ينتظر دوره . وبلغت الأزمة ذروتها عندما وجدت طفلة بمدرســة البنات الابتدائية مختنقة فى دورة المياه .

وتتابعت الأحداث بصورة مرعبة . وتلقاها الناس بذهول . لم يعد أحد يهتم بالتفاصيل المملة عن التحقيق والبحث وآراء الباحثين فى الصحف . انحصر التفكير فى الخطر الداهم الذى يزحف غير مكترث لشىء ، ولا يفرق بين شيخ وشاب ، وغنى وفقير ، رجل وامرأة ، صحيح ومريض ، فى بيت أو فى الترام أو فى الطريق . مجنون ؟ .. وباء ؟ .. سلاح سرى ؟ .. خرافة من الخرافات ؟ ! . وغشى الحزن الحى شبه المهجور ، وأنهكه الذعر ، وأغلقت البيوت أبوابها ونوافذها ، ولم يعد لأحد من حديث غير الموت .

وكان محسن عبد البارى يتجول فى الحى كالمجنون ، يتفقد الشرطة والمخبرين ، ويتفحص الوجوه والأماكن ، ويمضى فى يأس تام . ويناجى يأسه طويلا ، وهزيمته المريرة ، ويود لو يقدم عنقه الى المجـــرم شرط أن يعفى الناس من حبله الجهنمى . وزار

مستشفى الولادة حيث ترقد زوجته . جلس الى جانب فراشها . قليلا وهو يرنو اليها والى الوليد ، مفتر الثغر عن ابتسامة . ابتسامة لأول مرة منذ عهد غير قصير . ثم لثم جبينها وذهب ، عاد الى الدنيا التى يود ألا يراه فيها أحـــد . ووجد ما يشبه الدوار . الحياة التى يقضى عليها حبل مجهول فتصبح لا شيء . لكنها شيء بلا ريب وشيء ثمين . الحب والشعر والوليد . الآمال التى لا حد لجمالها . الوجـــود فى الحياة .. مجرد الوجود فى الحياة . أهناك خطأ يجب أن يصلح ؟ . ومتى يصلح ؟ واشتد الدوار كما يحدث عند يقظة مفاجأة عقب نوم عميق .

ونمت أنباء الى مأمور القسم بأنه تقرر نقل الضابط محسن عبد البارى واحلال آخر محله . استاء المأمور استياء شديدا ، ومضى من فوره الى حجرة الضابط الذى يقدره خير قدره ، رآه مستلقى الرأس على المكتب كالنائم ، فاقترب منه وهو يقول بلطف :

ـــ محسن ..

ناداه فلم يرد . وكرر النداء ولكنه لم يرد . هزه ليوقظه فمال رأسه ميلة غريبة . عند ذاك لمح المـــأمور نقطة دم فوق السومان . نظر نحو زميله بفزع فرأى أثر الحبل الجهنمى حول العنق . وزلزل القسم ومن فيه !

وحدثت سلسلة اجتماعات خطـــيرة فى المحافظة واتخذت قرارات هامة وعاجلة . واستدعى المدير العـــام جميع معاونيه وقال لهم بقوة وحماس :

— سنعلن حربا لا هوادة فيها حتى يقبض على المجرم ...

وتفكر قليلا ثم استطرد :

— هنالك شيء لا يقل خطورة عن المجرم نفسه ، وهو الذعر الذى اجتاح الناس ..

— نعم يا فندم !

— يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة وأن يعود الناس الى الاحساس الطيب بالحياة ..

وتجلى التساؤل فى الأعين المستطلعة فقال المدير :

— لن تنشر كلمة واحدة عن الموضوع فى الصحف ..

وآنس من الأعين فتورا فقال :

— الحق ان الخبر يختفى من الدنيا اذا اختفى من الصحف ..

وقلب عينيه فى الوجوه ثم قال :

— لن يدرى أحد بشيء ولا سكان العباسية أنفسهم ..

ثم ضرب منكبيه بقبضته وقال :

— لا حديث بعد اليوم عن الموت ، يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة ، وأن يعود الناس الى الاحساس الطيب بالحياة ، ولن نكف عن البحث ...


زينة

ازدحم مدخل العمارة رقم ١١٥ بشارع رمسيس بالمنتظرين أمام أبواب المصاعد ، وهو مدخل لا يخلو من ازدحام كما يجدر بعمارة جميع شققها مؤجرة للشركات . وكان بين المنتظرين ثلاثة أشخاص جاءوا فى وقت واحـد على وجه التقريب ، رجلان وفتاة ، وكأكثر الحاضرين لم يكن يعـرف أحدهم الآخـر . وبطبيعة الحال لم ينتبه أحد الى الرجلين على حين تسللت نظرات الاهتمام الى الفتاة لشبابها وجمالها وأناقتها . وبينا بدا أحد الرجلين كمن يناقش نفسه مناقشة حادة حتى جعل يقضم ظفره من حين لآخر لاحت فى عينى الآخر نظرة حالمة وحزينة ، وعندما صادفت عيناه الفتاة دبت فيهما حياة متألقة كالزهرة .

قصد أول الثلاثة الشقة رقم ١٨ بالدور الثالث فمضى الى السكرتارية وحيا السكرتيرة اللطيفة هناك وقال برقة ممزوجة بالثقة :

ــ محمد بدران ..

ولم تكد الفتاة تغيب وراء باب المـدير حتى عادت وهى تقول :

ــ تفضل .

دخل محمد بدران حجرة المدير فمد له هذا يده من وراء مكتبه وهو منهمك فى مكالمة تليفونية ، ثم أشار اليه بالجلوس ، فغاص فى مقعد جلدى كبير أمام المكتب . وبسرعة سحرية سرى

فى جلده وأعصابه الهواء المكيف فأنعشه وهدهده وأخذ يجفف عرقه ويرطب لهيب الحر الذى عاناه فى الطريق واختنق به فى المصعد . وسرعان ما وعد نفسه بتركيب جهاز تكييف فى حجرة مكتبه حالما تتحسن الأحوال عما قريب ان شاء الله ، ولو يشاركه فيها الأبناء فى بعض أوقات المذاكرة ، بل ولا بأس من أن يتحول جزء منها الى مكان لجلوس الزوجة فى أشهر القيظ . وكالعادة انثالت على ذهنه أحلام الثراء بلا تحفظ فأكملت ما ينقص حياته من الرفاهية . شقة جديدة فى حى راق بعيدا عن روض الفرج طبعا ، أثاث فاخـــر ، مطبخ امريكانى ، بار امريكانى أيضا ، سخان ، فريجيدير كبير ، سيارة ، شـــقة دائمة بالاسكندرية للتصييف فى الصـــيف ولعطلات المواسم فى بقيـــة الفصول . ولسبب ما خطرت بباله الفتـــاة الجميلة التى رآها فى مدخل العمارة أمام المصعد . ما أجمل أن « يملك » الانسان صديقة مثلها .فائقة الجمال حقا . وجمالها أثر بهيج مثير لأحلام الشباب فى الحب والنشوة السامية . ترى أما زال يذكر عهد الشباب الأول بأحلامه ومثالياته ؟ ! . واذا به يستيقظ على صوت المدير وهو يقول :

— كيف حالك يا أستاذ محمد ؟

فخرج من أحلامه قائلا :

— بخير ما دمت بخير يا سعادة المدير ..

وضحكا معا بلا مناسبة ظاهرة وان أحنقه صوته الجهورى ذو النبرة الشديدة والجلجلة ، ثم رفع اليه عينيه كأنما يقول « فى

خدمتك يا فندم » فقال المدير الذى اعتمد مكتبه بمرفقيه :

ـــ كيف الأحوال ؟

ـــ ماشية ! ، ليس فى الرأس الا مشروعات ..

ـــ كل شيء بأوانه ، أراهن على أنك ستحقق مشروعاتك ، أنا خبير بالرجال ..

فابتسم قائلا :

ـــ لنا زميل لعلك تعرفه ، كنا نعمل منذ ثلاثة أعوام فى جريدة واحـــدة بثلاثين جنيها ، هل تصـــدق أنه يعمل اليوم بثلاثمائة جنيه ؟

ـــ ستجيء فرصتك أيضا ( ثم وهو يضحك ) وأنا ماذا كنت منذ خمسة أعوام ؟

ـــ لكنك رجل أعمال .. !

وضحكا مرة أخرى . واذا بوجه المدير يسترد هيئته الجادة ويقول داخلا فى موضوعه :

ـــ أنا ارتأيت طريقة ستوفر عليك تعبا كثيرا ..

ورمقه محمد بقلق كأنه خاف أن يعقب التوفير فى التعب توفير فى الأجر ، ثم قال بعجلة :

ـــ أنا لا يهمنى التعب ، الىّ بنقط الموضوع وسوف تقرأ مقالا لن يشك قارئه فى أنه بقلم اخصائى من العلماء !

فلم يبد على المدير أنه اكترث لاعتراضه ، وأخرج من درج مكتبه مقالة مسطورة على فرخين من الورق ، فتساءل محمد فى شبه انزعاج :

ــ كتبتها كلها ؟

ــ لا ينقصها الا امضاؤك !

فتناولها الآخر فى فتور وهو يغمغم :

ــ لكن ..

فقاطعه قائلا بلهجة مرحة :

ــ اقرأ ولا تخف ، متى وجدتنى بخيلا يا جاحد ! ؟

فاسترد شيئا من طمأنينته وهو يقول كالمحتج :

ــ ولكنك ستعودنى على الكسل .. !

وراح يقرء : « عزيزى القارىء ، ماذا تعرف عن العقار الجديد « س . ا . ب » ؟ لعلك تسمع عنه لأول مرة . ولم تسمع بطبيعة الحال عن الثورة العلمية التى أحدثها فى أمم الشمال بصفة خاصة وفى القارة الأوروبية بصفة عامة ؟ . فى الأسطر القادمة ستعرف كل شىء عنه ، مؤيدا بأقوال جمهرة من كبار العلماء . ولما كانت مجلتنا علمية قبل كل شىء فانا نرجو ألا يطوح الخيال بأحد قرائها ، فان اعتقادنا ألا قوة تستطيع أن تعيد الشباب اذا ولى ، ولكن عقارا يؤخر الشيخوخة عشرة أو خمسة عشر عاما ليس مما يستهان به ... » .

واستمر فى قراءة المقال والمدير يتابعه فى اهتمام لا يخلو من سخرية ، حتى أتمه . وتبادلا النظر فى صمت مليا ثم سأله المدير :

ــ ما رأيك ؟

ــ مدهش ، ثمة أخطاء فى اللغة أو النحو ستصحح بطبيعة الحال ، ولكنه مقال هام ومثير ..

ـــ يجب نشره فى صفحة مهمة ..

فقال محمد بدران بشىء من المكر :

ـــ أنت تعرفنى من قديم ، ولكن هناك معلومات قد تحتاج الى تحقيق علمى أو الى تعديل على الأقل ، ان مجلتنا ذات صفة علمية معترف بها !

فقال المدير ببرود :

ـــ لن أزيد مليما على المبلغ المتفق عليه !

ـــ لا أقصد هذا ..

ـــ بل تقصده ! ، لا تكن طماعا ، ستأخذ المجلة أجرة اعلان ممتاز جدا ، وستأخذ أنت مكافأتك كما اتفقنا فلا داعى للمشاغبة !

فدارى محمد هزيمته الخفيفة بضحكة وقال بحرارة زائفة :

ـــ أخاف أن يؤدى الافراط فى تناول العقار الى ..

ـــ ما أجمل تلاوتك للآيات الانسانية ! ، لكننى أزعم أننى انسانى أكثر منك ، هذا العقار اذا لم يفد فلن يضر ، وهو مفيد قطعا ، والانسان يعيش على الأوهام ويسعد بها ...

وتناول من جيبه مظروفا صغيرا ، ووضعه على المكتب أمام الأستاذ محمد ، وكان هذا يعرفه كما يعرف وجه طفله ، فأخذه وهو يبتسم قائلا :

ـــ ألف شكر يا اكسلانس ، ربنا ما يحرمنى منك ..

ـــ ولا منك يا أستاذ محمد ...

وقاما فى وقت واحد فتصافحا ، ثم ذهب . وشملته حركة

سريعة ، أشبه بالاندفاع ، هى طابعه فى السير ، وكان عليه أن يذهب الى المجلة دون ابطاء . ولم يكن فى ذهنه الا المشكلات الخاصة بالمجلة التى عليه أن يحلها قبل هبوط الليل . فى زمن بعيد نسبيا كان يفكر طويلا بعد تناول مثل هذا المظروف . على الأقل كان يقــارن بدهشـــة بين حاله حين تخرجه فى الجامعة والتحاقه بالعمل مخمورا بأسمى الآمال ، وبين حاله التى صار اليها حين لم يعد لشىء قيمة الا السيارة وجهاز التكييف وتعليم الأولاد فى الكلية الأمريكية ...

***

وقصدت الفتاة الشقة رقم ٣٣ بالدور الخامس . سارت بقامتها الرشيقة ، ووجهها الجميــل ، وعينيها اللوزيتين اللتين تشعان حيوية حتى انتهت الى مكتب السكرتير ، فقام بحماس وصافحها بحرارة ثم أشار اليها بالجلوس وهو يقول :

ـــ المدير مشغول ، خمس دقائق ، كيف حالك ؟

جلست وهى تبتسم فى تحفظ ماكر ، وتشاغلت عن الشاب المحدق فيها بالنظر الى الحجرة البديعـــة المعدة لاستقبال أهل الأهمية والمـــال . وعلق بصرها بلوحة من الفن الحديث لم تميز بوضوح من أشيائها الا تفاحة استقرت فى مكان غمازتها عين بشرية هالعة على حين اكتنفتها خطوط وألوان فاقعـــة وأجزاء متناثرة من أعضاء الجسم الانسانى ، وبصفة عامة خيل اليها أنها ترى ركن حجرة ـــ كانت مأهـــولة بالبشر ـــ أثر زلزال عنيف

مدمر . استردت عينيها وهى ترفع حاجبيها المقرونين فى شبه احتجاج ساخر فرأت الشاب وهو يشير الى الكرسى الجالس عليه ويقول باسما :

— ستجلسين هنا بعد أيام ..

— متى تسافر الى ألمانيا ؟

— فى نهاية الأسبوع على الأكثر ، ولكن متى أراك ثانية ؟

ودق جرس التليفون الخاص بالمدير فرفع الشاب السماعة لحظة ، ثم أعادها ومضى الى الحجرة ، وما لبث أن خرج مصحوبا بخواجا طاعن فى السن فأوصله حتى الباب . وعاد الى الفتاة وهو يقول :

— تفضلى يا آنسة زينب ..

وهى تمر أمامه فى طريقها الى الحجرة همس فى أذنها :

— أظن من الممكن أن تتقابل الليلة .. ؟

فظلت تنظر فيما أمامها وان وشى عارضها بابتسامة ، حتى غيبها باب الحجرة . تقدم المدير ليلاقيها فى المنتصف ، بقامته المترهلة ، وصلعته الوضيئة ، وانحنى نحوها بوجهه المجدور ، يتقدمه أنف كالكف المبسوطة بين هالتين من سوالف بيضاء ، فتناول يدها ، وضغط عليها بحنان مريب ، ومضى بها حتى أجلسها على المقعد الوثير أمام المكتب ، ثم جلس على كرسيه وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

— خطوة عزيزة يا زوزو ، كيف حال والدتك وأخواتك ؟



ــ عال . متشكرة جدا يا فندم ..

وكانت رغم مطاوعة الأمـــور تجد قلقا ، واحساســا كأنه التقزز ، لكنها ابتسمت الى عينيه المكللتين بحاجبين أشيبين ، عينيه الحادتين رغم الكبر ، وقاومت النفور المستقر فى شعورها ، والذى جاء معها من الطــريق ، بل من البيت ، رغم محاولاتها القوية فى مغالبته بالأحلام الخيالية المتألقة كالماس .

ــ ستشرفين السكرتارية فى نهاية الأسبوع ..

اتسعت الابتسامة المغتصبة من شفتيها ، فتحركت قسمات الرجل فى نشوة كالطرب وقال بحرارة :

ــ أنت ضوء الحياة يتســـلل الى قلبى المظلم من جديد ، وسوف ينعكس على حياتك بالسعادة ..

ذكرها هذا بما رددته جدران بيتها الصماء فى غير حياء ، وبأمها التى تبدو أحيانا كنمرة متوثبة وان تكن تنقلب قطة مستكينة عندما تندى جفونها بدمعة ما . وغمغمت فى حرج :

ــ أرجو أن تجدنى عند حسن ظنك ..

فابتسم ابتسامة اقشعر لها بدنها ، فندمت على ما فرط منها دون تدبر . واذا به يتساءل :

ــ وقريبك ؟

فقالت بامتعاض خفى :

ــ انتهى الأمر ، فسخت الخطبة ..

ــ ماذا قلتم ؟

ــ لم تعوزنا المبررات الوجيهة ..

فقال بنبرة مبتهجة :

ـــ لن تندمى على ما فات ، أمك حكيمة ، وأنت كذلك ، ان متاعب الحياة لا تفض كما يزعم الحمقى فى الصحف ، ولكنها تفض بالارادة الحية ، ارادة شخص ذكى مثلك ..

ما أبشع خجلها ، أو ما أبشعه فى بعض الأحيان على الأقل . لكنها لم تندم على فسخ الخطبة . لم تعدها بحياة تستحق هذا الاسم ، وتوعدت أسرتها بمتاعب جديدة . وهى لم تكن تحب قريبها . الآن لن يفصل بينها وبين من تحب شىء . حتى لو علم بحقيقة ما تمضى اليه اذ من حسن الحظ أن الطيور على أشكالها تقع . وسألته باستهانة :

ـــ ماذا يزعم الحمقى فى الصحف ؟

ـــ أحاديث كألف ليلة وليلة عن اصلاح المجتمع والكون ، ماذا تفيدين من ذلك أنت ؟!

فرفعت كتفيها فى استهزاء ، فعاد يقول :

ـــ لولا الدّين لتزوجت منك بلا تردد ..

فغضت البصر حتى شعر بأنه ينبغى أن يبرر موقفه فقال :

ـــ ان تغير الدين كفيل بالقضاء على مركزى ، وبالتالى على الوسائل التى يمكن أن أسعدك بها ..

فقالت بارتياح خفى :

ـــ هذا مفهوم وواضح ..

فقال بحماس :

ـــ ولو هيأت لك ڤيللا كاملة لأحرجتك ، لكنك ستكونين

السكرتيرة ، شيء عادي وطبيعي ، وستكون متع الدنيا بين يديك : صدقيني ان المال هو سر بهجة الحياة ، وانى مصمم على جعلك أسعد مخلوقة فى هذا الوجود ..

— متشكرة جدا ..

فهز رأسه بارتياح وقال :

— سأرسلك الى حمدى رجب مدير الادارة ليمتحنك ، مجرد اجراء شكلى كى تسير الأمور فى مجراها الطبيعى ..

— متشكرة جدا ..

— وخبرى والدتك بأن تستعد للانتقال الى مصر الجديدة ..

— سيجىء هذا فى وقته ..

وندمت مرة أخرى على ما أفلت منها من قول . باتت سريعة الغضب حقا ، وان ظل وجهها باسما هادئا . وأوشكت أن تغضب على طموحها المجنون نفسه ...

وقامت وهى تقول :

— سأذهب الى مدير الادارة .

فقام أيضا ومضى حول مكتبه . وسارت نحو الباب فتبعها وهو يرنو الى رسم ظهرها البديع ، حتى وقفا وجها لوجه وراء الباب . تناول يدها وانحنى كأنما ليقبلها ولكنه مد وجهه عند منتصف المسافة الى خدها فلثمه . ولبث دانى الوجه من وجهها ، وأنفاسه ترعش الأهداب الحريرية المسدلة من كلفة الفستان أعلى الصدر ، ثم تساءل برغبة محمومة .

ـــ أما من قبلة ؟

فأومأت الى الأحمر فى شفتيها وتساءلت :

ـــ وهذا !

ـــ ولو !

فلثمت جانب فيه ، ثم استدارت نحو الباب ..

***

وقصد ثالث الثلاثة الشقة رقم ٥٠ بالدور الثامن . كانت صورة الفتاة الجميلة ما تزال تعايش خياله معايشة لطيفة ، مخالطة أفكاره ومشاعره وأنفاسه ، وكان يتصور فى نشاط حار خلاق الحياة العريضة التى يمكن أن يصنعها ذلك المثال من الجمال الحى. لكنها انطوت فى ركن مجهول أمام السكرتيرة الدميمة الذكية التى ابتسمت لاستقباله . حياها برقة وهز رأسه هزة المتسائل وهو ينظر نحو باب المدير فقالت على الفور :

ـــ انه ينتظرك يا أستاذ ..

ودخل فقام المدير باسم الوجه وهو يقول :

ـــ أهلا أستاذ وديع ، جئت فى وقتك .. !

وتصافحا ، ثم جلس وديع ، أما المدير فمال نحو صوان قريب فمد يده داخله مليا ، ثم قدم الى الأستاذ لفافة ماسية أدرك هذا لأول وهلة انها « قرش » ، ثم قال :

ـــ هدية لك ! ، لم أعرف الا مصادفة أنك من أهل الكيف ! .

وابتسم وديع فى شىء من الارتباك وهو يدسها فى جيبه ، وجلس المدير وهو يقول :

— قرأت القصة ، جميلة ، نعم جميلة ، لى عليها بعض الملاحظات سأحدثك عنها عندما يبدأ الاجتماع ( ونظر فى الساعة ) .. واذا كان لدى الآخرين ملاحظات أخرى فرجائى أن تفرغ من اعادة كتابتها قبل نهاية الشهر ، حتى يجد كاتب السيناريو مهلة لكتابته ، وحتى ندخل الاستديو فى الميعاد المتفق عليه ..

القصة تتغير ولكن قصة القصة ، قصة جميع القصص ، واحدة . هذه هى المسألة التى يتكرر وقوعها عند مناقشة أى من قصصه . قصتك جميلة يا أستاذ .. ولكن ! . هى جميلة ولكن يجب أن تؤلفها من جديد . وتساءل من خلال تنهدة لم تسمع عن ذلك الركن من الدنيا الذى تجرى فيه الأمور على طبيعتها وتنطلق الطيور مغردة ، بلا خوف ولا جهل ولا طغيان ، ولم يداخله شك فى أنه سيجد هنالك الفتاة الجميلة التى عايشت خياله حتى أثملته . وتحرك حركة لا معنى لها وقال على سبيل الدفاع عن النفس :

— يا أستاذ مجدى ، أنت سألتنى ان كان عندى قصة فقدمتها ، ثم أخبرتنى انك قبلتها ، أليس كذلك ؟

— طبعا ، لكن القصة ليست الا مشروعا ، وعلينا أن نبدأ من أساس متين حتى نضمن انتاج فيلم نظيف ، شركتى عنوان

الانتاج النظيف ، ألا تعلم أنهم يطلقون على اسم المنتج المجنون لهذا السبب ؟!

كان يتابع صوته بغيظ مكتوم ، وينظر بغرابة الى وجهه المطل عليه من وراء مكتبه متضمنا جميع آيات الصحة والعافية والتحـــدى . كانت ملامحـــه جميعا تنطق بالتحـــدى ، عيناه الجاحظتان ، أنفه المدبب ، فكاه العريضـــان القويان . وكانت عنايته بالأناقة فائقة الحد ، ورائحة المسك تفوح منه رغم علم جميع المقربين اليه من أنه يتدهن بها لرأى قرأه عن اثارتها فى أحد الكتب الجنسية . هذا المدير الكبير الذى قضى زهرة العمر مندوبا لشركة تأمين ، وما زال يباهى بطلاقته فى الفرنســـية ويستعمل منها الألفاظ والعبارات لمناســـبة ولغير مناسبة ، الى درايته بأشياء كثيرة فى الحياة العملية ، وان يكن الشىء الوحيد الذى لم يفقه فيه حرفا هو الفن بصفة عامة ، والقصة بصفة خاصة . وتساءل وديع عن اللعنة الغريبة التى قضت عليه طوال حياته الفنية بأن يقف موقف المستأذن بفنه أمام أناس لا يربطهم سبب واحد بهذا الفن . وتنهد من الأعماق تنهدة خفية حارة كمعركة فى أعماق المحيط ..

وفى تمام السادسة مساء جاء المخرج الأستاذ محمد طنطاوى ، وتبعه بعد قليـــل الموزع مسيو دزرائيلى ، ثم قامت الحجـــرة لاستقبال النجمة عواطف زهدى . وهلت المرطبات ألوانا وضج المكان بالأحاديث والنكات والتعليقـــات ، على حين انكمـــش

الأستاذ وديع فى كرسيه ينتظر أن تبدأ محكمة التفتيش عملها . وجعل يسترق الى وجوههم النظرات .

وتساءل متى تتقوض سيطرة الطغاة . متى يمكن أن يفكر محمد طنطاوى كانسان ؟ . متى يحل فى رأس مسيو درزائيلى شيء غير الأرقام والنقـود ؟ . متى تقلع عواطف زهـدى عن العادات المتأصلة التى اكتسبتها فى بيت الهوى التى انتشلت منه الى عالم الفن ؟ . متى يكف مجـدى السـيد عن انتاج أفلام كعربون لعشق جديد ؟ . متى تقف هذه العوامل كلها عن التدخل فى فبركة القصص ؟ . ووجد نفسه تستعيد صورة الفتاة الجميلة التى عايشته منذ قليل ، وحلم مرة أخرى بالحياة العريضة التى يمكن أن يصنعها جمالها الحى .

وارتفع صوت المدير وهو يقول :

ــ هه ، لندخل فى الموضوع ، الأستاذ وديع عبد الرازق هنـا ليسمع آراءكم فى قصـته ، فيجب أن ننتهى الليلة من المناقشة حتى يشرع فورا فى تعديل القصة ..

واتجهت الأنظار نحو مسيو درزائيلى باعتباره رأس المال ، وكان ضائعا فى المقعد الضخم لقصر قامته وضـآلة جسـمه فتزحزح الى الأمام حتى استوى على طرف المقعد وقال باهتمام :

ــ القصة تبدأ ساخنة ولكنها تنتهى باردة ، هـذا شيء خطير جدا ...

تركزت عليه الأبصار فى انتباه واحترام ، وتجلت مقدمات

الموافقة دون كلام ، ولما هم المخــرج بفتح فيه قاطعه الخواجا قائلا :

ــ لا مؤاخذة يا محمد ، أنا عندى موعد ولا بد أن أذهب حالا فاتركنى حتى أتم كلامى ، قلت ساخنة وباردة ، وشخصية البطل غير محبوبة لأنه غنى ، والمتفرجون فى بولاق والســيدة زينب لا يحبون الأبطال الأغنياء ، ولا مجال فى القصة للضحك ، الجمهور يحب الضحك ، وجو الضحك فرصة لخلق رقصة أو أغنية ، ابحثوا هذه النقط ، واذا تعذر تعديل القصة فعندى لكم سيناريو جاهز قابل للتصوير فورا ..

وتساءل وديع بحدة :

ــ سيناريو ؟ !

فابتسم اليه ملاطفا وقال :

ــ أنا وكيل توزيع أفلام أجنبية ، وعادة أستحضر جميع الســيناريوهات لأختار على أســاسها الأفلام التى أوزعها ، وأشترى ما أشاء من الأفلام ، ولكنى أســتبقى سيناريوهات الأفلام الأخرى حتى تسعفنى فى مثل هذه الزنقة ، ولن يضيع حقك كمؤلف فسيكتب اسمك على القصة الجديدة ، ولن تتهم بالسرقة لأن الفيلم المصور عن هذا السيناريو لن يرد الى الشرق الأوسط ، فكروا فيما قلت ، وسأتصل تليفونيــا بك يا مجدى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لأعرف النتيجة ..

ووقف رافعا يده بالتحية فوقفت الحجرة ، ثم ذهب ..

وتغيرت تعبيرات الوجوه بعد ذهابه فانطلقت على سجيتها

مما دل على أنه كان ثمة توتر غير ملموس ثم زال ، وقلب مجدى ناظريه فى الوجوه وهو يقول بنبرة ملؤها التشجيع :

ــ لا تهتموا بما قال ، أنا عارفه ، كلامه كثير لكنه يقتنع فى النهاية برأيى ، والحق أن هذه القصة صالحة تماما لعواطف ..

فقالت عواطف :

ــ السيناريو الذى أشار اليه لخصه لى بالتليفون وهو غير مناسب لى على أى حال ، أنا لا أصلح لتمثيل الزوجة الخائنة ، وسيغضب هذا غالبية جمهورى ..

فقال محمد طنطاوى وهو يشعل سيجارة :

ــ فلنتكلم فى قصة الأستاذ وديع ...

ــ خبرلى عن رأيك فيها ؟

ــ أنا أوافق درزائيلى على أنها تنقصها الفكاهة ..

فقال وديع بحرارة :

ــ الموضوع جاد ، اذا أردت اللمسات الفكاهية هنا أو هناك فهذه أمرها غير عسير وهو يجىء فى العلاج دون افساد الفكرة الأصلية ..

ــ لا أقصد هذا ، أنا أريد خلق شخصية مضحكة لتلعب دورها فى الفيلم كله ، كتابع أو صديق للبطل ..

فاستمات وديع فى الدفاع قائلا :

ــ لكنها تبدو شخصية ملزوقة ، وقد تكررت فى أفلامنا حتى باخت ..

فقالت عواطف :

ـــ بالعكس هذه الشخصية تنجح دائما ، ودورها مناسب لحمودة !

ولم يكن حمـــودة الا أخاها ، ولذلك لم يجـد وديع فى المعارضة جدوى فعدل عنها قائلا :

ـــ سأجد لها مكانا فى القصة ..

فعاد المخرج يقول :

ـــ وسخن النهـاية أكثر ، انها ليست باردة كما يقـول دزرائيلى ولكن تسخينها لا بأس به ، اختمها بمعركة بين البطل وغريمه ..

ـــ لا .. لا ، هذه نهاية لا تناسب موضوعا نفسـيا ، ولا تناسب موضوعنا بحال ، فكر فى هذا من فضلك ، انهـا نهاية مناسبة لفيلم رعاة بقر أو ما يشابهه ...

ـــ المعركة لعبة ناجحة ، وأنا متخصص فى المعارك ...

فقال مجدى ضاحكا :

ـــ يا أستاذ وديع لا تظلم مخرجنا ، كيف تحـرمه فى فيلم طويل ولو من معركة واحدة ؟ ، أتريده أن يضرب المتفـرجين أو يضرب المنتج .. !

وضجت الحجرة بالضحك عدا وديع الذى مضى يجتر غمـه صامتا ، واذا بعواطف تقول :

ـــ ودورى مناسب بلا شك ولكنه فى النصـف الأول من الفيلم سلبى ..

فقال وديع اليائس من تتابع الضربات :

— دورك فى الأول هو دور امرأة عادية ، نموذج متكرر من نسائنا فى البيت ، ولكن دورك الحقيقى يبدأ بزواجك من البطل ..

— ليس هذا بدور بطلة فيلم ..

— ولكن هكذا القصة تسير ..

— ولو !

وتساءل : ترى ألا يمكن أن يجد عملا آخر غير التأليف ؟ . وتأوه دون صوت . وعند ذاك قال مجدى :

— هذه ملاحظات بسيطة لن تغير جوهر القصة ، وطبعا أنت موافق يا أستاذ وديع ؟ !

— الحق انى غير موافق ..

فضحك ضحكة مترعة بصحة وعافية وقال :

— هكذا يكون موقفك كل مرة ، وتستمر المناقشات حتى منتصف الليل ، ثم تجبر بخاطرنا ..

وقال المخرج :

— الأستاذ وديع عنيد ولكنه يسايرنا فى النهاية ، وفنان السينما يجب أن تذوب شخصيته فى المجموع !

وندت عن مجدى آهة كأنما تذكر فجأة شيئا ذا بال ، واستخرج من درج مكتبه شيكا وهو يقول :

— القسط الثانى حل منذ أسبوعين ، لعن الله المشاغل ..

ومد له يده فتناوله وهو يستشعر أول نسمة باردة فى

هذه الجلسة الجهنمية . وبدا منه أنه يستعد لمواصلة المرافعة ، ولكن مجدى قال :

ــ ممكن أن نلخص ما تم الاتفاق عليه بما يأتى : خلق شخصية مضحكة لحمودة ، تسخين النهاية بمعركة ، خلق حوادث مهمة لعواطف قبل الزواج من البطل ..

ثم ضحك ضحكة عالية وهو يقول :

ــ ولكن لا نريد حوادث قبل زواجها من المنتج ..

وضجوا جميعا بالضحك ، واستأذن المخرج ووديع فذهبا معا . ودعاه المخرج الى سيارته الكبيرة ليوصله الى محطة الترولل باس ، فانسابت بهما السيارة كالعروس . وقال المخرج :

ــ مطلوب منى قصة لشركة أبو الهول سأخرجها بعد هذا الفيلم مباشرة ، فهل عندك فكرة ؟

عذاب جديد فى سبيل رزق جديد . كم يسره هذا الطلب وكم يحزنه ! . وفكر مليا ثم قال متسائلا :

ــ ما رأيك فى موضوع عن المال ؟

ــ قصة بوليسية ؟

ــ كلا ، انى أود أن أكتب عن المال باعتباره غولا مخيفا يلتهم القيم الجميلة بلا رحمة كالخلق والجمال والروح ..

ففرقع محمد طنطاوى بأصبعيه فرحا وقال بحماس :

ــ اشرع فى كتابتها وقابلنى يوم الجمعة لكتابة العقد ، فكرة عظيمة ، وهادفة ، وصالحة جدا للاشتراك فى جائزة وزارة الثقافة ...

# زعبلاوي

اقتنعت أخيرا بأن عليّ أن أجد الشيخ زعبلاوى .

وكنت قد سمعت باسمه لأول مرة فى أغنية :

الدنيا ما لها يا زعبــلاوى    شقلبوا حالها وخلوها ماوى

وكانت أغنية ذائعة على عهــد طفولتى فخطر لى يوما أن أسأل أبى عنه كعادة الأطفال فى السؤال عن كل شىء ، سألته :

ــ من هو زعبلاوى يا أبى ؟

فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك فى استعدادى لفهم الجواب ، لكنه قال :

ــ فلتحل بك بركته ، انه ولى صــادق من أولياء الله ، وشيال الهموم والمتاعب ، ولولاه لمت غماً ...

وفى السنوات التى تلت ذلك سمعته مرات وهو يثنى أطيب الثناء على الولى الطيب وكراماته .

وجرت الأيام فصادفتنى أدواء كثيرة ، وكنت أجد لكل د ء دواءه بلا عناء وبنفقات فى حدود الامكان ، حتى أصابنى الداء الذى لا دواء له عند أحد ، وسدت فى وجهى السبل وطوقنى اليأس ، فخطر ببالى ما سمعته على عهد طفولتى ، وتساءلت لم لا أبحث عن الشيخ زعبــلاوى ؟ ! . وذكرت أن أبى قال انه عرفه فى بيت الشيخ قمر بخان جعفــر ، وهو شيخ من رجــال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية ، فقصــدت بيته ، وأردت

التأكد من أنه ما زال يقيم فيه فسألت بياع فول أسفل البيت ، فنظر الرجل الى باستغراب وقال :

ــ الشيخ قمر ! ، ترك الحى من عهد بعيد ، ويقال انه يقيم اليوم بجاردن ستى ، وان مكتبه بميدان الأزهار ..

واستدللت على عنوان مكتبه بدفتر التليفون ، وذهبت اليه من توى فى عمارة الغرفة التجارية . واستأذنت ، ثم دخلت الحجرة على أثر خروج سيدة حسناء منها أسكرتنى برائحة زكية كالسحر المخدر . استقبلنى باسما ، وأشار الى بالجلوس فجلست على مقعد جلدى فاخر ، وأحست قدماى رغم غلظ النعل بغزارة السجادة ونفاستها . وكان الرجل يرتدى البدلة العصرية ويدخن السيجار ، ويجلس جلسة المعتد بنفسه وماله ، وينظر الى بترحاب حار لم أشك معه فى أنه يظننى زبونا ، فركبنى الحرج والضيق لتطفلى على وقته الثمين . قال يستحثنى على الكلام :

ــ أهلا وسهلا !

فقلت لأضع حدا لموقفى الحرج :

ــ أنا ابن صديقك القديم الشيخ على التطاوى !

فمرت بنظرته رنوة فتور ، لا الفتور كله لأنه لم يفقد الأمل كله وقال :

ــ الله يرحمه ، كان رجلا طيبا ..

فتشجعت على البقاء بقوة الألم الذى ساقنى الى المجىء وقلت :

ــ كان حدثنى عن ولى طيب يدعى زعبلاوى قابله عند

فضيلتكم ، انى يا سيدى أريده ان كان ما يزال على قيد الحياة .

استقر الفتور فى العينين . ولم أكن لأدهش لو طردنى أنا وذكرى أبى معا ، وقال بلهجة من صمم على انهاء الحديث :

— كان ذلك فى الزمان الأول ، وما أكاد أذكره اليوم ..

فقمت لأطمئنه الى اعتزامى الذهاب وأنا أسأله :

— أكان وليا حقا ؟

— كنا نراه معجزة ..

فسألته وأنا أتحرك لأزيد من طمأنينته :

— وأين يمكن أن أجده اليوم ؟

— مدى علمى أنه كان يقيم بربع البرجاوى بالأزهر ..

وأكب على أوراق على مكتبه بحركة قاطعة بأنه لن يفتح فاه مرة أخرى فحنيت رأسى شكرا واعتذرت عن ازعاجه مرات ، وغادرت مكتبه وأنا لا أسمع للدنيا صوتا من وش الخجل فى رأسى .

وذهبت الى ربع البرجاوى الذى يقوم فى حى مأهول لحد الاكتظاظ ، فوجدته قد تآكل من القدم حتى لم يبق منه الا واجهة أثرية وحوش استعمل رغم الحراسة الاسمية مزبلة . وكان له مدخل مسقوف اتخذه رجل محلا لبيع الكتب القديمة من دينية وصوفية ، وكان قميئا ضئيلا كأنه مقدمة رجل ، فلما سألته عن زعبلاوى نظر الى بعينين ملتهبتين ضيقتين وقال باستغراب :

— زعبلاوى ! ، يا سلام ! ، والله زمان ! ، كان يقيم فى

هذا الربع حقا عندما كان صالحا للاقامة ، وكان يجلس عندى كثيرا فيحدثنى عن الأيام الخالية ، وأتبرك بنفحاته ، ولكن أين زعبلاوى اليوم ؟ !

وهز كتفيه فى أسى ، وسرعان ما تركنى لزبون قادم . ورحت أسأل أصحاب الدكاكين المنتشرة فى الحى ، فاتضح لى أن عددا وافرا منهم لم يسمع عنه ، وآخرين تحسروا على أيامه الحلوة وان جهلوا مكانه ، والبعض سخر منه بلا حيطة ونعتوه بالدجل ونصحونى أن أعرض نفسى على دكتور كأننى لم أفعل . ولم أجد بدا من العودة الى بيتى يائسا .

ومضت الأيام مثل عكارة الجو ، واشتد بى الألم ، فأيقنت بأننى لن أصبر على هــذه الحال طويلا ، وعدت أتســاءل عن زعبلاوى وأتعلق بالآمال التى بعثها اسمه القديم فى نفسى . عند ذاك خطرت لى فكرة وهى أن أقصد شيخ حارة الحى ، والحق انى عجبت كيف لم أفكر فى هذا من أول الأمر . وكان مكتبه عبارة عن دكان صغير غير أن به مكتبا وتليفونا ، وكان يجلس الى مكتبه مرتديا چاكتة فوق جلباب مقلم ، ولم يقطع دخولى حديثه مع رجل يجلس الى جانبه ، فوقفت أنتظر حتى انصرف الرجل ، ثم نظــر الى ببرود ، فقلت أفض مغاليقــه بالقواعد المتبعــة ، فسرعان ما جرت البشــاشة فى وجهه ، ودعانى الى الجلوس وهو يسألنى عن مطلبى ، فقلت :

ــ انى فى حاجة الى الشيخ زعبلاوى ..

فرمقنى بدهشة كما رمقنى السابقون من قبل وابتسم عن أسنان مذهبة وهو يقول :

ــ على أى حال فهــو حى لم يمت ، ولكن لا مســكن له وهذا هو الخازوق ، ربما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد ، وربما قضيت الأيام والشهور بحثا عنه دون جدوى ..

ــ حتى أنت لا تستطيع أن تجده !

ــ حتى أنا ! ، انه رجل يحير العقول ، ولكن احمد ربنا على انه ما زال حيا ..

ونظر الى مليا ثم تمتم :

ــ الظاهر ان حالتك شديدة ..

ــ جدا ..

ــ كان الله فى عونك ، لكن لم لا تستعين بالعقل ؟

وبسط ورقة على المــكتب ومضى يخطط عليهــا بسرعة ومهــارة غير متوقعتين حتى رسم للحى خريطة شاملة أحياءه وحواريه وأزقته وميادينه . نظر اليها باعجاب ثم قال :

ــ هذه مساكن ، وهنا حى العطارين ، وحى النحاسين ، خان الخليلى ، القسم والمطافىء . الرسم خير مرشد وخد بالك من المقاهى وحلقات الذكر والمساجد والزوايا والباب الأخضر فقد يندس بين الشحاذين فلا يميز منهم ، أنا فى الواقع لم أره من سنوات وشغلتنى عنه شواغل الدنيا ، وقد أعادنى سؤالك عنه الى أجمل عهود الشباب ..

وجعلت أنظر فى الخريطة بحيرة . ودق جرس التليفون فرفع السماعة وهو يقول لى بأريحية :

ــ خذها ، ونحن فى خدمتك ..

غادرته وأنا أطوى الخريطة ، ورحت أقطع الحى ، من ميدان الى شارع الى عطفة ، وأنا أسأل من آنس فيه الماما بالمكان ، حتى قال لى كواء بلدى :

ــ اذهب الى حسنين الخطاط بأم الغلام فانه كان صديقه ..

وذهبت الى أم الغلام . وجدت عم حسنين يعمل فى دكان ضيق عميق الطول ، ملىء باللوحات وحقاق الألوان ، وتنبعث من أركانه رائحة غريبة هى خليط من رائحة الغراء والعطر . وكان عم حسنين متربعا فوق فروة أمام لوحة مسنودة الى الجدار قد نقش فى وسطها باللون الفضى اسم الله . وكان مكبا على زخرفة الحروف بعناية تستحق الاحترام فوقفت وراءه متحرجا من ازعاجه أو قطع فيض الالهام عن يده المنسجمة فى ملكوتها ، وطال انتظارى واشفاقى ، واذا به يتساءل فى لطف بلدى :

ــ نعم ..

أدركت أنه كان على علم بوجودي فعرفته بنفسى وقلت :

ــ قيل لى ان الشيخ زعبلاوى صديقك وأنا أبحث عنه ..

كفت يده عن العمل وتفحصنى متعجبا ثم قال بنبرة تنهدية :

ــ زعبلاوى ! ، يا سبحان الله !

فتساءلت بلهفة :

— هو صديقك ، أليس كذلك ؟

— كان يا ماكان ، الرجل اللغز ! : يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ، ويختفى فكأنه ما كان ، لكن لا لوم على الأولياء ..

انطفأ الأمل كما ينطفىء المصباح بغتة لانقطاع التيار ، وقال الرجل :

— لازمنى عهدا حتى خلت أننى أرسمه فيما أرسم ولكن أين هو اليوم ؟

— لعله ما زال حيا ..

— هو حى بلا ريب ، وكان له ذوق لا يعلى عليه ، وبفضله صنعت أجمل لوحاتى ..

فقلت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل :

— يعلم الله أننى فى مسيس الحاجة اليه وأنت أدرى بالمتاعب التى يقصد من أجلها !

— نعم .. نعم ، شفاك الله ، والحق أنه رجل كما يقال عنه وأكثر .

ثم وهو يبتسم مشرقا :

— وفى وجهه جمال لا يمكن أن ينسى ، ولكن أين هو ؟ !

واقتلعت قدمى وأنا أصافحه ثم ذهبت . ومضيت أشرق فى الحى وأغرب سائلا عنه من آنس فيه طول عمر أو خبرة حتى أخبرنى بياع ترمس بأنه قابله فى بيت الشيخ جاد الملحن المعروف منذ زمن وجيز . وذهبت الى بيت الموسيقار بالتمبكشية ووجدته فى حجرة بلدية ، أنيقة ، تتردد فى جنباتها أنفاس

التاريخ ، وكان يجلس على كنبة وعوده الشهير منطرح الى جانبه منطويا على أجمل أنغام عصرنا ، على حين ورد من الداخل صوت هاون ولغط صغار . وحالما سلمت وقدمت نفسى أشعرنى بحلاوة استقباله وانطلاقه على سجيته بأننى فى بيتى . ولم يسألنى عما جاء بى سواء بالكلام أو الاشارة ولم أشعر بانه يدارى السؤال أو يضمره حتى عجبت للطفه وانسانيته . وقلت مستبشرا خيرا :

ـــ يا شيخ جاد ، أنا من عشاق فنك ، طالما طربت له فى أفواه المطربات والمطربين ..

فقال باسما :

ـــ تشكر ..

فقلت فى حياء :

ـــ لا مؤاخذة على ازعاجك ، قيل لى ان زعبلاوى صديقك وأنا فى أشد الحاجة اليه ...

فقطب فى اهتمام وقال :

ـــ زعبلاوى ! ، أنت فى حاجة اليه ؟ ، الله معك ، ترى أين أنت يا زعبلاوى ؟

فتساءلت فى لهفة :

ـــ ألا يزورك ؟

ـــ زارنى منذ مدة ، قد يحضر الآن ، وقد لا أراه حتى الموت !

فتنهدت بصوت مسموع وتساءلت :

— لم كان كذلك ؟

فتناول العود وهو يضحك وقال :

— هكذا الأولياء والا ما كانوا أولياء !

— ويتعذب عذابى من يريدهم ؟

— هذا العذاب من ضمن العلاج !

وأمسك بالريشة وراح يعابث الأوتار فينطقها نغما عذ[illegible]
فتابعته شارد اللب ثم قلت وكأننى أخاطب نفسى :

— اذن ضاعت زيارتى سدى !

فابتسم وهو يلصق خده بجنب العود ، وقال :

— الله يسامحك ، أيقال هذا عن زيارة عرفتنى بك وعرفت[illegible]
بى !

فخجلت أيما خجل وقلت معتذرا :

— لا تؤاخذنى ، أخرجنى شعور الخيبة عن حدود الأدب ..

— لا تستسلم للخيبة ، هذا الرجل العجيب يتعب كل من يريده ، كان أمره سهلا فى الزمان القــديم عندما كان يقيم فى مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيرت ، وبعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ، فلم يعد الوصول اليه بالشىء اليسير ، ولكن اصــبر وثق بأنك ســتصل ..

ورفع رأسه عن العود ، وانتظم العزف حتى صــار مقدمة موسيقية واضحة ، واذا به يغنى :

أدر ذكر من أهوى ولو بملامى
فان أحاديث الحبيب مدامى

وعلى جمال اللحن والغناء تابعته بقلب غافل مكدود . ولما فرغ من الأداء قال :

ـــ لحنت هذه القصيدة فى ليلة واحدة ، وأذكر أنها كانت ليلة عيد الفطر . وكان هو ضيفى طوالها ، وهو الذى اختار لى القصيدة ، وكان يجلس حينا بمجلسك هذا ، وحينا يلاعب أولادى كأنه أحدهم ، وكلما غلبنى الفتور أو استعصى على الالهام لكمنى مداعبا فى صدرى وضاحكنى فيجيش قلبى بالنغم وأواصل العمل حتى اكتمل لى أجمل لحن صنعته ..

فتساءلت فى دهش :

ـــ أله فى الطرب ؟

ـــ هو الطرب نفسه ، وصوته عند الكلام جميل جدا ، ما ان تسمعه حتى ترغب فى الغناء ، وتهيج أريحية الخلق فى صدرك ..

ـــ وكيف يشفى من المتاعب التى يعجز عنها البشر ؟

ـــ هذا سره ، ولعلك تظفر به عند اللقاء ..

لكن متى يجىء اللقاء ؟ ! . ولذنا بالصمت فعادت ضوضاء الصغار تملأ الحجرة . ومضى الشيخ فى الغناء مرة أخرى ، وجعل يردد « ولى ذكرها » فى ألوان من طبقات النغم ومحاسنه حتى رقصت الجدران من سكرة الطرب . وأعربت عن اعجابى بكل

جوارحى فشكرنى بابتسامته العذبة ، ثم قمت مستأذنا فأوصلنى الى الباب الخارجى ، وعندما صافحته قال لى :

— سمعت أنه يتردد هذه الأيام على الحاج ونس الدمنهورى ، ألا تعرفه ؟

فهززت رأسى بالنفى ، وانتفاضة أمل جديد تدب فى قلبى ، فقال :

— هو من الوارثين ، ويزور القاهرة من حين لآخر فينزل فى فندق ما ، ولكنه يسهر كل ليلة فى حانة النجمة بشارع الألفى ..

وانتظرت الليل ثم ذهبت الى حانة النجمة . سألت نادلا عن الحاج ونس فأشار الى ركن شبه منعزل لموقعه وراء عامود مربع ضخم تقوم بأضلعه المرايا فى كل جانب ، وهنالك رأيت رجلا يجلس الى مائدة وحيدا ، وأمامه فوق المائدة زجاجة فارغة الى ثلثها ، وأخرى فارغة تماما ، وعدا ذلك لا يوجد شىء من مزة أو طعام فأيقنت أننى حيال سكير خطير . وكان يرتدى جلبابا فضفاضا حريريا وعمامة مقلوظة ، ومد ساقيه حتى أصل العامود ناظرا الى المرآة فى ارتياح وانسجام وقد توردت صفحة وجهه المستدير الوسيم — رغم دنوه من الشيخوخة — بحمرة الخمر . اقتربت منه فى خفة حتى توقفت على مبعدة ذراعين من مجلسه ولكنه لم يلتفت نحوى ولم يبد عليه أنه شعر بوجودى ، فقلت برقة متوددة :

— مساء الخير يا سيد ونس ..



فالتفت نحوى بشدة كأنما أيقظه صوتى من سبات ، وحدجنى بنظرة انكار فقدمت اليه شخصى معتذرا عن ازعاجه وهمست بتوضيح السبب الذى جاء بى اليه لكنه قاطعنى قائلا بلهجة شبه آمرة وان لم تخل من لطف عجيب :

ـــ تفضل بالجلوس أولا ، واسكر ثانيا !

ففتحت فمى لأعتذر لكنه وضع أصبعيه فى أذنيه وقال :

ـــ ولا كلمة حتى تفعل ما قلت ..

أدركت أننى حيال سكران ذى نزوات فقلت أسايره حتى منتصف الطريق فجلست وابتسمت وقلت :

ـــ أرجو أن تسمح لى بسؤال واحد ...

لم يرفع أصبعيه من أذنيه ، وأشار الى الزجاجة وقال :

ـــ فى مجلس كمجلسى هذا لا أسمح بأن يتصل بينى وبين أحد كلام ان لم يكن سكران مثلى ، والا خلا المجلس من اللياقة وتعذر فيه التفاهم ..

افهمته بالاشارة أننى لا أشرب فقال بقلة اكتراث :

ـــ هذا شأنك ، وهذا شرطى !

وملأ لى كوبه ، فتناولته فى رضوخ وشربته ، وما أن استقر فى جوفى حتى اشتعل ، فصبرت عليه حتى ألفت عنفه وقلت :

ـــ انه لشديد ، وأظن آن لى أن أسألك عن ..

لكنه أعاد أصبعيه الى أذنيه وقال :

ـــ لن أصغى لك حتى تسكر ..

وملأ الثانى فنظرت اليه مترددا ، ثم تغلبت على احتجاجى الباطنى وشربته دفعة واحدة ، وما أن استقر فى موضعه حتى فقدت ارادتى . وعلى أثر الثالث ضاعت ذاكرتى ، وعقب الرابع اختفى المستقبل ، ودار بى كل شىء ، ونسيت ما جئت من أجله . أقبل على الرجل مصغيا ولكنى رأيته محض مساحات لونية لا معنى لها ؛ وهكذا كل شىء بدا . ومر وقت لم أدره حتى مال رأسى الى مسند الكرسى وغبت فى نوم عميق ، وفى أثناء نومى حلمت حلما جميلا لم أحلم بمثله من قبل . حلمت بأننى فى حديقة لا حدود لها ؛ تنتثر فى جنباتها الأشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء الا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب أو كالغيم . وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ ، ورشاش نافورة صاف ينهل على رأسى وجبينى دون انقطاع . وكنت فى غاية من الارتياح والطرب والهناء ، وجوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف فى أذنى ، وثمة توافق عجيب بينى وبين نفسى ، وبيننا وبين الدنيا فكل شىء حيث ينبغى أن يكون بلا تنافر أو اساءة أو شذوذ ، وليس فى الدنيا كلها داع واحد للكلام أو الحركة ، ونشوة طرب يضج بها الكون . ولم يدم ذلك الا فترة قصيرة فتحت بعدها عينى . أخذ الوعى يلطمنى كقبضة شرطى ، ورأيت ونس الدمنهورى ينظر الى باشفاق ، ولم يكن بقى فى الحانة الا بضعة أشخاص كالنيام . وقال الرجل :

— نمت نوما عميقا ، لا شك أنك جائع نوم ..

فأسندت رأسى الثقيل الى راحتى ولكننى رددتها فى دهشة ونظرت فيها فرأيتها تلمع بقطرات ماء ، وقلت محتجا :

ــ رأسى مبتل !

فقال بهدوء :

ــ نعم ، حاول صاحبى أن ينبهك ..

ــ أرآنى أحد على هذه الحال ؟!

ــ لا تغتم ، انه رجل طيب ، ألم تسمع عن الشيخ زعبلاوى ؟

فانتفضت قائما وأنا أهتف :

ــ زعبلاوى !

فقال بدهشة :

ــ نعم ، مالك ؟!

ــ أين هو ؟

ــ لا أدرى أين هو الآن ، كان هنا ثم ذهب ..

هممت بالجرى ولكن اعيائى كان فوق ما قدرت فما لبثت أن تهاويت فوق الكرسى ، وصحت بيأس :

ــ ما جئتك الا لألقاه ، ساعدنى على اللحاق به أو ارسل أحدا فى طلبه ..

فدعا الرجل بائع جنبرى وأمره بالبحث عن الشيخ واحضاره ، ثم التفت الى قائلا :

ــ لم أكن أدرى أنك مصاب ، آسف جدا ..

فقلت بغيظ :

ـ لم تدعنى أتكلم ..

ـ يا خسارة ! ، كان يجلس على هذا الكرسى الى جانبك ، وكان يتغزل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه أهداه اليه أحد المحبين ، ثم عطف عليك فراح يبلل رأسك بالماء لعلك تفيق ..

فسألته وعيناى لا تفـارقان الباب الذى ذهب منه بائع الجنبرى :

ـ هل يقابلك هنا كل ليلة ؟

ـ كان معى الليلة ، وليلة أمس ، وأول أمس ، ولم اكن رأيته منذ شهر .!

فقلت وأنا أتنهد :

ـ لعله يأتى غدا ..

ـ لعله ..

ـ أنا على استعداد لأعطيه ما يريد من نقود ..

فقال ونس باشفاق :

ـ العجيب أنه لا تغريه المغـريات ولكنه سيشفيك اذا قابلته ..

ـ بلا مقابل ؟

ـ بمجرد أن يشعر بأنك تحبه ..

وعاد بائع الجنبرى بالخيبة ، وكنت قد اسـتعدت بعض نشاطى فغادرت الحانة وأنا أترنح . وعند كل منعطف ناديت

« يا زعبلاوى » لعل وعسى ، ولكن لم يفدنى النداء ، ولفت الى غلمان السبيل فتطلعوا نحوى بأعين هازئة حتى لذت بأول عربة صادفتنى ..

وساهرت ونس الدمنهورى الليلة التالية حتى الفجر ولكن الشيخ لم يحضر . وأخبرنى ونس بأنه سيسافر الى البلد وبأنه لن يعود الى القاهرة حتى يبيع القطن . وقلت على أن أنتظر وأن أروض نفسى على الصبر ، وحسبى أنى تأكدت من وجود زعبلاوى ، بل ومن عطفه على مما يبشر باستعداده لمداواتى اذا تم اللقاء . ولكننى كنت أضيق أحيانا بطول الانتظار فيساورنى اليأس ، وأحاول اقناع نفسى بصرف النظر نهائيا عن التفكير فيه . كم من متعبين فى هذه الحياة لا يعرفونه أو يعتبرونه خرافة من الخرافات فلم أعذب النفس به على هذا النحو ؟ .

ولكن ما ان تلح على الآلام حتى أعود الى التفكير فيه وأنا أتساءل متى أفوز باللقاء . ولم يثننى عن موقفى انقطاع أخبار ونس عنى وما قيل عن سفره الى الخارج للاقامة ، فالحق اننى اقتنعت تماما بأن على أن أجد زعبلاوى ..

نعم ، على أن أجد زعبلاوى ...

# الجبّار.

أخيرا تراءت القرية . والليل يهبط من ذروة الأفق . والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالاعياء . والخلاء المدثر بالمغيب يترامى الى ما لا نهاية . تقدم أبو الخير بقدمين متورمتين نحو القرية . من شدة الخوف تجمد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف . ومن شدة الألم لم يعد يشعر بالألم . ولمحه العائدون فاتسعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه . وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه . وغض أصدقاؤه بينهم الأبصار . وجعل يشق طريقه بعيدا عنهم ماضيا نحو مصيره . وتابعته الأعين وهو يبتعد رويدا رويدا حتى لم يبق منه الا ما يبقى فى الخاطر من حلم . وهزوا الرءوس وقالوا : ضاع الرجل .. انتهى أبو الخير ..

***

وقعت مأساة أبو الخير فيما يشبه المصادفة . غلبه النعاس ذات ليلة فى مخزن الغلال بدوار سيده الجبار . واستيقظ على حـركة لكنه للوهلة الأولى لم يشـعر الا بأنه شىء غارق فى الظلام ، أى مكان ؟ ، أى زمان ؟ ، لم يدر شـيئا فى الوهلة الأولى ، ثم ردته رائحة الغلال الى وجوده . وانتبه الى الحركة التى أيقظته فمد نحوها بصره فى الظلام ، واذا به يسمع صوتا يقول فى ضراعة ورعب :

ـــ لا .. لا .. يا سيدى ..

هذا الصوت يعرفه . صوت زنوبة بنت عليوة . مذعورة كأن وحشا يأكلها ، توثب أبو الخير ليعرب عن شهامته بعمل ما لكن صوتا غليظا عميقا سبقه هاتفا فى نبرة محمومة :

ـــ اسكتى ..

تسمر فى مكانه وخارت قواه . هذا الصوت يعرفه أيضا . صوت سيده ، عبد الجليل ، الجبار ، السلطة ، القانون ، الحياة والموت . نسى زنوبة وانحصر تفكيره فى وجوده غير المبرر فى هذا المكان ، فى المأزق الذى خلقته غفوة خائنة ، وبم يجيب لو استجوب ! . وفى لحظة اقتنع بأن الورطة ورطته هو لا ورطة زنوبة وحدها ، وبأن الذنب ذنبه هو لا ذنب الجبار الذى لا يسأل عما يفعل ، وظل يحملق فى الظلام حتى تراءى له كائن ضخم كالشبح يضطرب بالحركة . لعله الجبار مستوليا على البنت كالفرخ بين مخالب الحدأة . واستمرت الضراعة الباكية تلطمها الزجرة المحمومة كما تلطم الزوبعة ورقة الشجر . وتولاه فزع وتقزز ويأس حتى أحب لو يستجيب الله مرة أخرى الى دعاء نوح . وندت عن الأرض خشخشة مكتومة نمت عن تحركات الأقدام المتوترة ولم تتعد دائرة الشرك الرهيب . وأنين متوجع أعقبته همهمة كلفحة نار . وخيل اليه أن الظلام يعوى تحت وطأة ثقيلة ، وأن عروقه ستنفجر . وتوثب ليصرخ لأنه لم يعد يتحمل الألم غير أن صرخة من الجبار سبقته ، صرخة ألم مباغت ، بدأت حادة ثم غلظت وانتهت كالزئير ، ثم صاح :

ـــ يا مجرمة ..

وسمع وقع لطمة شـــديدة تتبعت بأنين مســـتسلم يائس وسقوط جسم ، جسم رقيق خفيف الوزن . وقال الجبار بحنق ملتهب :

ـــ يا مجرمة ! .. خذى ..

وانهالت مطرقة القـــدم الغليظة على المتأوهة . خذى .. خذى .. خذى . وتواصل الأنين آخذا فى الهبوط حتى اختفى ، وتلته زفرات هامسة ، أما الغضب فاشتعل جنونه الى مالا نهاية ، خذى .. خذى .. خذى ، وصاح أبو الخير بلا وعى :

ـــ اتق الله ...

فتلقى صوتا كالقذيفة متسائلا :

ـــ من ؟ ..

فاندفع أبو الخير نحو الباب وشده اليه . انفتح الباب وتدفق ضوء القمر فمرق أبو الخير منه ، واذا بالجبار يصيح :

ـــ عرفتك ، أبو الخير ، قف ..

جرى كالرصاصة بقوة التقزز والفزع واليأس ، والصوت فى أعقابه :

ـــ ولد يا أبو الخير .. يا مجرم .. قف يا مجرم ..

وتردد صـــوت السيد فهرعت نحوه الأقدام ، وأرهفت الأسماع ، وما لبثت أن استيقظت القرية ، وجعل أبو الخير يجرى شوطا ويهرول آخر حتى انتهى الى كوخ صديقه حارس حقل بطيخ بزمام العمارى . ارتمى الى جانبه وهو يلهث من الجهد

والكلال فأقبل الآخر عليه مرحبا ملاطفا ومواسيا . قدم له كوز ماء ليشرب ويبلل وجهه ، وراح يصغى الى مأساته فى جوف الليل . وتنهد أبو الخير أخيرا وتساءل :

ــ أتكلم فى النقطة ؟

فهز صاحبه رأسه محذرا وقال :

ــ يقتلونك ولو فى المحكمة ..

فتساءل فى حيرة :

ــ والعمل ؟

ــ اختف ..

ــ طول العمر ؟

فرفع الحارس رأسه الى السماء دون كلام ، فقال أبو الخير :

ــ الولية والبنت فى القرية تحت رحمة الجبار بلا معين ..

ــ فكر فى حياتك ..

فتنهد فى كرب شديد وتساءل :

ــ أين القانون ؟

فضحك الحارس ضحكة جافة وقال :

ــ تجده نائما فى بطن بطيخة ..

فى اليوم التالى جاءه الحارس بأخبار . قال له انه ذاع فى القرية ان أبو الخير اغتصب البنت وقتلها ثم هرب . شهد بهذا السيد نفسه والجميع يصدقونه دون مناقشة . وأهل الضحية فى حريق من الحزن ، كذلك الأهــل والجيران . ورجال كثيرون توعدوا بالانتقام . والحكومة تجــرى التحقيق وتسمع أقوال

الشاهد الوحيد . وحق الخزى على امرأته وابنته وأخرسهما الحزن .

— جريمتى اننى رأيت جريمة الآخر ..

— لِمَ نمت فى المخزن ؟

— أمر ربنا !

فرمقه بأسف قائلا :

— اختف ..

ومر بالحارس رجال من رجال السيد يبحثون عن أبو الخير . ومر به رجال من أهل البنت الضحية . سمع أبو الخير من مخبئه أصوات المجدين فى البحث عنه ولمح وجوههم الكالحة ونذر الموت المتطايرة من محاجرهم .

— سأهرب ..

— نعم ، ربنا معك ..

— ليس معى مليم ...

فقال وهو يدارى خجله بغض البصر :

— ولا أنا ..

وانطلق أبو الخير عند جثوم الظلام بلا هدف ولا معين . لم يكن جاوز طيلة حياته السوق بحال ولا يعرف عن الدنيا شيئا . وتجنب القرى القريبة لعلمه بأنها فى متناول الجبار ، الى أن الحكومة نفسها تجد الآن فى أثره . ولا سبيل الى تبرئة نفسه ، وسيكون دائما عرضة فى هذه البقاع وفى أى لحظة الى رصاصة تنطلق فتقضى عليه . وظلام هذا الليل لن يمتد الى الأبد ، سرعان

ما ينقشع عن ضوء النهار ، ويبدو هو للأعين كعقرب تستبق اليها الهراوات والنعال . ومن لامرأته وابنته ؟ ، من لهما فى جو ينضح بالمقت والرغبة فى الانتقام ؟ . وجد فى السير على غير هدى . ووجد الأشياء تعلن فى حذر عن ذواتها فوضحت نوعاً ما أشجار الصفصاف والنخيل ، والزرع المنتشر تتخلله المماشى ، وترعة ابتسم ماؤها وتلألأت أطراف من موجاته ، فخرج من ذهوله متعجبا ، والتفت لخاطر برق فى رأسه المكدود نحو الأفق الى يساره فرأى القمر صاعدا فوق الأرض بأذرع متجليا كأكبر ما يرى وأسهم الضياء تنطلق منه وانية . ضايقه على غير عادة القمر ، وجعل يتلفت الى الوراء كلما أوغل فى السير . وترامى نباح من أطراف الصمت الثقيل ، ومرة تعـالى عواء فارتعدت فرائصه . أين منه مصر الكبيرة ليذوب فى زحمتهـا ويجد مخبأ ولقمة ؟ . كم يلزم من الوقت للقـدم المتورمة لتقطع ما يقطعه القطار السريع فى أربع ساعات ؟ . وانطلقت زعقة غفير كصفير القاطرة فتوقف لها قلبه . لعله يعترض سبيله متسائلا عن هويته ومذهبه . وخاف أن يتقدم خطوة . ومال نحو شجرة جميز فلبد عند أصلها كأنه نتوء فى سحائها . لن يتعرض له غفير فى ضوء النهار ولكن من للمرأة والبنت ؟ ! . يمكن أن يبلغ بعد العذاب مصر ولكن من يحمى المرأة والبنت ؟ ، وكيف تطيب الحياة لمن يعيش مُطارَدا الى الأبد محروق القلب على امرأته وابنته ؟ . ولبث يحملق فى الفضاء ، أفكاره تتلاطم ، والساعات تمر ، حتى سرقه النوم . واستيقظ وهو يحلم بأنه يتهاوى من قمة جبل .

فتح عينيه فرأى الأقدام الغليظة تضرب من حوله حلقة محكمة .

وقف فزعا وهو يلمح الرجال يرمونه بنظرات كالأحجار المدببة وجيادهم وراء ظهورهم تصهل . وهتف من الأعماق :

ـ أنا فى عرض النبى !

فلطمه أحدهم لطمة أردته على الأرض وصاح به :

ـ تهرب يابن التيس !

فهتف مرة أخرى :

ـ أنا فى عرض النبى !

فغرس الرجل قدمه فى بطنه وهتف :

ـ تغتصب البنت وتقتلها !

ـ أنا ...

أوشك أن يقــول أنا برىء ولكنه تذكر لحسن حظه أنه يخاطب رجال الجبار فأمسك ، ورمق الرجل بنظرة ذليلة خرساء فقال الرجل :

ـ ارجع واعترف ..

فقال بنبرة باكية :

ـ يشنقونى !

فركله بقسوة وقال :

ـ السيد لن يتركك لحبل المشنقة :

ـ يسجونى !

فركله ركلة أشد من الأولى وقال :

ـ ويعيش أهلك فى أمان !



تأوه يائسا ولم ينبس فزمجرت الخناجر تتعجله فقال بصوت مهموس :

ـ سأرجع .. !

ورجل يقطع الطريق على قدميه وهم يتبعونه عن بعد .

وأخيرا تراءت القـرية . والليـل يهبط من ذروة الأفق . والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالاعياء . والخلاء المدثر بالمغيب يترامى الى ما لا نهاية . تقدم أبو الخير بقدمين متورمتين نحو القرية . من شدة الخوف تجمد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف . ومن شدة الألم لم يعد يشعر بالألم . ولمحه العائدون فاتسعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه . وراحوا يتهامسون ويشيرون نحوه . وغض أصدقاؤه بينهم الأبصار . وجعل يشق طريقه بعيدا عنهم ماضيا نحو مصيره . وتابعته الأعين وهو يبتعـد رويدا رويدا حتى لم يبق منه الا ما يبقى فى الخاطر من حلم . وهزوا الرءوس وقالوا : ضاع الرجل .. انتهى أبو الخير ..

# كلمة في الليل

أخيرا انزاح ، واصبحت احالته على المعاش حقيقة واقعة . وانتشر الخبر فى المراقبة مشيعا الارتياح العميق فى كل ادارة . وكان ثمة تهامس كالأنين بأن فى النية مد مدة خدمتـــه عامين جديدين ، وبسبب ذلك نجح سكرتيره الخاص فى جمع التبرعات لاقامة حفل تكريم له ، ثم جاء الخبر اليقين كالشفاء بعد المرض . وتبادل الموظفون التهانى بلا حرج ، وفرح حتى أتعسهم كادراً ، وحق لمحمد الفل رئيس المحفوظات أن ينقر على مكتبه الكالح جذلا ويقول :

ــ ألم يكفنا أننا تحملناه أربعين عاما ؟! ، اللهم ان لنا الجنة بغير حساب .. !

وروح يسرى طاهـــر كاتب القيودات العجوز بدفتر القيد على وجهه وقال :

ــ فى ألف داهية يا حسين يا ضاوى ..

ولم يكن فى سيرة الرجل المحال على المعاش شىء يخفى ، ولكنهم أقبلوا عليها كأنما تؤرخ لأول مرة . وأبرز يسرى طاهر القابع تحت رفوف المحفوظات المكدسة رأسه ــ من بين صفين عاليين من الملفات فوق مكتبه ــ كرأس السلحفاة وقال :

ــ دخلنا الخدمة فى يوم واحد ، قرار تعيين واحد شمل يسرى طاهر وحسين الضاوى وعلى الكفراوى وعبد السلام زهـــدى ورغيب اسكندر ( وكان يشـــير بأصبعه الى الثلاثة الآخرين ) ثم أعطاه ربنا ، أو أعطاه الشيطان وهو الأصدق حتى

تقلد منصب المراقب العام فى سرعة مذهلة ، ماذا فعل لنا ؟ ، كان يمر بنا وكأنه لم يعرفنا ، لم يمد لأحد يداً ، داسنا كأننا حشرات حتى اكتظت ملفات خدمتنا بالعقوبات ، ومضى يترقى حتى بلغ القمة ونحن ما زلنا فى القاع ، عليه اللعنة !

فطوى رغيب اسكندر وكيل الصادر الجريدة التى كان يتفحصها ، وتزحزح الى الوراء قليلا ليتفادى من شعاع الشمس المنعكس على ضلفة النافذة الزجاجية ، وضحك ضحكة مقتضبة كالنذير ، ثم قال بنبرة ممطوطة تناسب الجرى وراء الذكريات البعيدة :

ــ الله يسامحك يا حسين يا ضاوى ، كنا جميعا من ساقطى الابتدائية ، وعملنا معا عمالا فى المطبعة ، وكان سعادته يجىء أحيانا بالجلباب والقبقاب ألا تذكرون ؟ ، ليس الفقر عيبا طبعا ، ولكن العيب فى الطرق الملتوية الشاذة المهينة التى يرتفع بها بعض الناس بغير الحق ، ويوما انتقل عامل المطبعة كاتبا بسكرتارية المدير ! كيف ولم ؟ ، وبعد سنة عين سكرتيرا للمدير ، ثم مديرا لمكتبه ، ثم زوجا لابنته ، ثم انطلق كالصاروخ الذى نسمع عنه فى هذه الأيام ! ، يا خبر أبيض يا حسين يا ضاوى ! ، ولا الأحلام ..

فقال محمد الفل رئيس المحفوظات مكايدا :

ــ كانت الفرصة أمامكم فلم خبتم ؟ !

وتجاوبت ضحكاتهم الملتوية المائعة كأنما تحكى فضيحة ، وقال يسرى طاهر :

ـــ لا يتيسر الوثوب الخاطف الا لمن حاز مؤهلات خاصة !

وتساءل محمد جاد وهو كاتب حديث الخدمة :

ـــ ألم يكن المراقب من حملة الليسانس ؟

فقال رغيب اسكندر بتسليم :

ـــ حصل على الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وليسانس الحقوق من منازلهم !

فارتسمت الدهشة فى وجه الشاب حتى قال على الكفراوى مدير الدفترخانة :

ـــ لا تدهش ، كان قوة نشاط عجيبة ، لكنه لم يرتفع بفضل شهاداته ، بل انه لم يحصل عليها الا حين وجد نفسه فى مركز لا يليق أن يستمر فيه دون شهادة عالية ، كان قذرا بكل معنى الكلمة ، ولكنه فى القدرة على العمل فاق ابليس نفسه !

فعاد محمد الفل يقول وهو يكور راحته على السبحة :

ـــ العمل ! ، ذكرتنى ياسى على ، كانت حياته عملا خالصا ، عمل .. عمل .. عمل ، أيمكن أن يعد ذلك فضيلة ؟! ، ما قيمة العمل اذا لم يختم يوم الانسان بساعة صفاء ومحبة تجعل للحياة طعما ؟ : هه ؟ ، أما مديرنا العام ـــ السابق والحمد لله ـــ فلم يتمتع بحياة على الاطلاق ، دوسيهات .. ملفات .. مذكرات .. تلك كانت حياته ، حتى يوم الجمعة كان يواصل العمل فى بيته ، وكان يعمل كل يوم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى فى الأعياد والمواسم الرسمية ، ولم يقم فى أجازة اعتيادية فى حياته كلها مرة واحدة ، عمل .. عمل .. عمل ، وكان هدفه من العمل

خدمة وكيل الوزارة أو الوزير ليتقاضى فى النهاية علاوة أو درجة ، حياة كاملة مضت على وتيرة واحـدة بين مسكنه فى الحدائق وميدان لاظوغلى ، .. أعوذ بالله ..

فقال عبد السـلام زهدى وكيل الوارد ووجهه يتقلص اشمئزازا :

ـــ حتى الطعام كان يتنـاوله شطائر فى مكتبه بسرعـة ولهـوجة ، وانقطعت أسـبابه بأسرته أو كادت ، حتى بنـاته المتزوجات لا يراهن الا خطفا ، وامرأته قضت حياتها فى شبه فراغ مخيف ، انه مجرم ولكنه قضى على نفسه بالعقوبة التى يستحقها ، ذلك الرجل البغيض الذى لم يعرف من الدنيا الا الملفات والمذكرات والتعاليم المالية ..

وهز رغيب اسكندر رأسه فى أسى وقال :

ـــ لكنه لم يكن عدو نفسه فقط ، كان أيضا عدو الآخرين..

وسرعان ما سال الامتعاض من زوايا الأعين ، وقال محمد الفل بنبرة مغيظة مختنقة :

ـــ لم أر موظفا كذلك الرجل استغل جهود جميع مرءوسيه ليفيد هو منهـا وحده ، ويمنع الخير عن الآخرين كما لو كان سيؤخذ من لحمه ودمه !

فأردف عبد السلام زهدى قائلا :

ـــ وحتى هـذا شر سلبى ، أما مقالبه وغـدره ونميمته ووقيعته ، كل أولئك فشر اجرامى ، كم أحرق قلوبا هذا الرجل !

ـــ قل كم خرب بيوتا !

ـــ الله يرحمه فريد قناوى مات وهو يدعو عليه على فراش موته ..

ـــ وحسنى غنيم مدير الحسابات السابق شـُل بسببه ..

فقال يسرى طاهر كاتب القيودات :

ـــ لا حصر لضحاياه ، لكنه لم يفكر الا فى شىء واحد هو مصلحته ، وترك الوزارة بلا صديق ، أؤكد لكم أنه لا صديق له فى الدنيا ..

وحوالى الساعة السادسة من مساء الخميس وقف تاكس أمام نادى « فينكس » فنزل منه حسين الضاوى . جاء ليشهد الحفل الذى يقام لتكريمه فوق حـديقة السطح لمناسبة احالته على المعاش .

كان قضى فى المعاش يوما واحدا ، يوم الأربعاء . يوم لن ينسى فى الأيام . أقل ما يقال فيه انه جعله يتساءل فيما يشبه الرعب هل حقا يستطيع أن يتحمل يوما آخر كذلك اليوم ! . وحيرته فى مسكنه صباحا تحت أعين امرأته المشفقة همٌ آخر لا ينسى . والراديو تسلية لم تخلق له ، لا يكاد يعرفه ، ولم يجد الفرصة ليتعرف به . والكون كله بدا أنه كف عن الحركة . وارتدى بدلته التى لم يعد لها معنى كأنها بدلة عسكرية لضابط متقاعد وغادر البيت غارقا فى الكرب ، ومشى حتى أدركه الاعياء سريعا فاستقل عربة الى وسـط المدينة . أزعجه الازدحام كأنما سد مسالك تنفسه . وتريث قليلا أمام معارض المحال التجارية ولكن عينيه لم ترغبا فى رؤية شىء ولم يكترثا لشىء . وخشى أن تقع

عليه فى تخبطه عين أحد من معارفه ، أى من الأعداء ، فلاذ بأول مقهى صادفه ، ومضى الى آخر ركن فيه . لم يكن ارتاد مقهى منذ أربعين عاما ، مذ كان يجالس يسرى طاهر وعلى الكفراوى ورغيب اسكندر وعبد السلام زهدى فى مقهى المالية فى الزمان الأول . وقال لنفسه انه يأوى أخيرا الى ملجأ الكسالى والعجزة فعصرته حسرة .

وتصفح جريدة ولكن ماذا يقرأ ؟ . لم يهمه فى الجريدة فيما مضى الا أخبار الوفيات والدواوين . وسرعان ما تململ فى مجلسه فكرهه وكره من فيه ، وطوقته الوحـدة كالقبر ، وشـعر فى انفصاله عن الوزير والوكيل والمذكرات بضياع أبدى . غادر القهوة ليسير بلا هدف على ما فى ذلك من جهد لم يعتـده . ووجد نفسه يمر بسينما فدخل . والسينما كذلك مكان لم يطرقه طوال الأربعين عاما الا مرات معدودات فى مناسبات الاحتفالات التقليدية بخطبة بناته . ولم يلبث فيها الا نصف سـاعة ، ثم غادرها وهو يزفر مللا ويأسا . وعاد الى البيت ذابلا . وجد ابنتيه المقيمتين فى القاهرة فى زيارته فجالسهما طويلا لأول مرة منذ عهد لا يذكره ، واستقر بنفسه أول احساس بالارتياح فى يومه الجهنمى . ثم وجد نفسه منفـردا بزوجته فى جلسة مرهقة ، الراديو يواصـل ضجيجه لا يهمه منه شىء ولا يهزه شىء . وساءل نفسه ألا يعد امرأته فى معسكر أعدائه المزدحم ؟ هى لم ترض يوما عن أسلوب حياته ، واحتجت المرة بعد المرة على اهمالها وفراغها وجفاف حياتها ، ولولا أن وجـدت ملاذا فى

بيتى ابنتيها لحطمت حياتها بيديها . ترى هل ارتاحت الى هـذه النهاية الخانقة ؟!.. هل تحلم بشىء من الأنس تجده فى وحشته المنكسرة ؟! . وحين استلقى فى فراشه تساءل فى رعب كيف يتحمل يوما آخر كهذا اليوم ؟!.

أما حفل التكريم هذا فهو آخر ما يربطه بالماضى ، بالناس . وهو حدث له أهميته . على الأقل لتعلم الوزارة خطورة الرجل الذى تقاعدت عن مد مدة خدمته ، وليعلم أعداؤه من كبار الموظفين وصغارهم أى رجل هو !. سوف يقف أمامهم مهيبا جبارا مستهينا باسما ولن يدرى أحد بالذل الذى كابده أمس . انهم يمقتونه مقتا ولكن خطباءهم سيستبقون الى الاقرار بمزاياه التى لا يمكن انكارها ، وسيرد على تحياتهم بتحية بارعة يؤكد بها تلك المزايا بطريقته الخاصة ، وسيجد فرصا للتهكم من كبار أعدائه بلباقة شيطانية . انها آخر حلبة ملاكمة يخوضها ، ملاكمة بقفازات حريرية لكنها مبطنة بالحديد ، وليخرجن منها ظافرا . استقل المصعد الى سطح النادى ، ومضى نحو مدخل الحديقة فى مشيته التقليدية التى كانت تفسح له الطريق فى أروقة الوزارة كأنه قاطرة . وامتد بصره الى الداخل فرأى الموائد على هيئة صدر وجناحين ولكن المقاعد كانت خالية ، أو شبه خالية ! . وعلى وجه الدقة لم ير الا السـادة صلاح الدين كامل مدير المستخدمين ، وابراهيم شافعى مدير الحسابات ، أمين هنداوى مدير المخازن ، وزيادة عبيد المراقب العام الذى حل محله ، أربعة من أعدى أعدائه وبخاصة الرجل الأخير . ثقلت قدماه وطاف به

ما يشبه الدوار . حلوى وورود ولكن أين الآدميون ؟! . كادت تخذله ارادته لولا الاستماتة فى مدافعة الشماتة بأى ثمن . الأوغاد الجبناء قاطعوا الحفل . ترى أهى مكيدة مدبرة ؟ . ومن المدبر ؟ لكنه ابتسم . أجل ابتسم حسين الضاوى كما كان يبتسم فى فترات الهزائم الوقتية التى تعقب استقالة وزير صديق ، وتقدم نحو أعدائه يصافحهم واحدا واحدا ، ثم ألقى نظرة على المقاعد الخالية وقال وهو ما يزال يبتسم :

ــ فيكم الكفاية ، تفضلوا بالجلوس ..

جلسوا . وجاء الخدم ليؤدوا الخدمات المألوفة . وانتظر الرجل حتى ابتعد الخدم ثم أطلق ضحكة ميتة وقال مداريا حرجه :

ــ يبدو أن الختام ليس مسكا ولا كالمسك ...

فقال مدير المخازن فى دهشة بلهاء :

ــ لعله وقع خطأ ليس فى الحسبان ...

فقال مدير الحسابات :

ــ لننتظر على أى حال ..

ولكن حسين الضاوى قال باستهانة :

ــ الانتظار لن يجدى ..

فقال صلاح الدين كامل وكان أقربهم جميعا الى روح المهادنة ، قال وهو ينظر الى المقاعد الخالية :

ــ لم أر فى حياتى قلة ذوق كهذه ..

فحسا الضاوى حسوة شاى باللبن ثم قال والغضب يشتعل تحت قبضة ارادته :

ــ لا أدرى شيئا عما وقع ، ولا يهمنى كثيرا أمره ، وسأصارحكم برأيى كما عودتكم ، هنالك طراز واحد من الرجال أحترمه ، طراز الرجل القوى ، وهو غير المحبوب بطبيعة الحال ، ولو كنت ممن يلتمسون الحب ما أعجزنى !

وعكست عينا زيادة عبيد المستديرتان الصغيرتان الحادتان نظرة ساخرة ، سرعان ما فجرت الغضب الكامن فى عروق الضاوى ، فقال وهو يحدج خصمه فى حنق :

ــ أنا لا يهمنى شىء ، لم يوجد رأس لم ينحن لى طويلا .

فتظاهر زيادة بالدهشة لغضب الرجل وقال ببرود كالموت :

ــ طول عمرك مناضل ملاكم ولكننى لا أذكر أنى رأيتك غاضبا مرة واحدة ..

فقال الضاوى بصوت ملتهب :

ــ لم يحدث انى وجدت أمامى من يستحق أن يثير غضبى !

فتساءل صلاح الدين كامل برجاء :

ــ ألا يمكن أن تمر الجلسة بسلام ؟ !

فأشار الضاوى الى المقاعد الخالية وهتف بصوت متهدج :

ــ مؤامرة دنيئة ..

فرمقه زيادة عبيد بهدوء ساخر وقال ببروده المعتاد :

ــ أنت مخطىء ، لم نعمل على منع أحد من الموظفين من الحضور ، وما جئنا الا لظننا بأنهم موجودون فى الحفل حتى نحافظ أمامهم على كرامتنا كموظفين كبار ..



ثم بهدوء مركز كالسم :

ـ والا ما كان هنالك باعث واحد يدعونا الى المجىء !

امتقع لون الضاوى وتحركت شفتاه حركة عصبية كحركة ذيل البرص المقطـوع ، وركز فى خصـمه عينيـه وعشرات الاحتمالات الجنونية تتلاطم فى رأسه ، لكنه كظم الطوفان فى اللحظة المناسبة ، وقال بحقد وتحد :

ـ أنا غير نادم على أننى عاملت كل شخص بما يستحقه ..

فتساءل زيادة بسخرية :

ـ ماذا جنيت من حياتك ؟ ! ، الدرجة ها أنت تتركها فى مكانها ، الدرجة التى نبـذت كل شىء فى سـبيلها ، وعقابك الحقيقى أنك ستجد أن الحياة قد نبذتك أيضا ..

وعاد صلاح الدين كامل يقول برجاء :

ـ سيسمعنا الخدم !

فوقف الضاوى وهو يقول دون مبالاة :

ـ لا يهمنى ، المراقب العام لا يهمنى بتاتا ، كذلك الخدم ، كل شىء يبدو حقيرا لا يستحق الأسف .. ، السلام عليكم ..

ومضى دون أن يصـافح أحدا . وما لبث أن سـافر الى المنصورة ليمضى أياما عند كبرى بناته . قضى أسبوعا فى صحة أقرب الى الاعتلال ولكنه رجع الى الحدائق على حال لا بأس بها . وخيل اليه انه نسى حفل التكريم وآلام الهزيمة ولكن الحزن لم يفارقه ، ولا الخوف من المستقبل ، من الملل والفراغ . وكأن أعجب ما وقع له انه اكتشف عند صلاة الصبح أنه لم يكن يفقه

معنى للفاتحة . حقـا لم ينقطع يوما عن الصـلاة ، ولكنه كان يؤديها كما يحلق ذقنه وكما يعقد رباط رقبته بفكر مشغول بأمر أو بآخر ، بمذكرة يعدها ، ببند من التعـاليم المالية ، بمعـركة يتوثب لها ، بأى شيء الا الصـلاة .

ولأول مرة وجد نفسه أمام هـذه العبارة « باسم الله » بلا شاغل يشغل قلبه عنها ، فاكتشفها لأول مرة فى حياته . وشعر بدوار وغرابة ، وتساءل كيف مر ذلك العمر الطويل ؟ ! . ومن شدة انفعاله غادر مسكنه الى الطريق ، وسار فيه الى الداخل لا الى الشارع العمومى كما ألف أن يفعل كل يوم فى عشرات الأعوام الماضية . لم يتفق له أن يسير فى هذا الاتجاه أبدا منذ زمن بعيـد جدا ، وبخاصـة فيما وراء المنعطف ، ولا كان ثمة ما يدعوه الى ذلك ، فظل يحتفظ له بصورته القديمة اذ كان طريقا مقفرا تحدق به الحقول من الجانبين . باسم الله ، بها تبدأ كل سورة ، والحق يجب أن يبدأ بها كل شيء ، ولعل هذا هو المراد حقا . وكلما أوغل فى الطريق بدت له كائنات جديدة لم تكن لتخطر له على بال . امتـدت على الجانبين الفيلات بحـدائق مخضرة منسقة ، وتراءت وراءها الحقول . وقامت على الطوارين الأشجار بجمالها الرزين ، كأنها فى صمتها تتناجى بلغة تنتظر من يكشف عن سرها كما كشف هو عن سر آخر . وبدا الطريق ممتدا الى غير نهاية فعجب غاية العجب وتساءل متى خلق هذا العمران كله ؟!. وخيل اليه أنه سيخجل كثيرا عند البوح بكشفه لأحد من الناس . ولكن أى أحـد من الناس يعرفه نيبوح له

بكشفه ؟ . ان العمران لم يدخل بعد قلبه ، قلبه المقفر من كل شيء . وعقابك الحقيقى أنك ستجد أن الحياة قد تبدلت أيضا . كما وجدها يوم الأربعاء أول أيام المعاش . ماذا جنى من حياته الماضية ؟ . ماذا جنى غير الفراغ والدوار ؟ . قدمت من الجهد فوق ما يطيق البشر ، ولكنه جهد مضى باسم الطموح الجنونى ، باسم الجشع ، باسم الأنانية ، باسم الكراهية ، باسم الحقد ، باسم العراك ، ولا عمل واحد باسم الله . وتأوه فى موقف اختفاء تحت ظل شجرة غير مبال بأنظار المارة . ترى هل فات الأوان وضاعت الفرصة ؟ . وامتد بصره مع الطريق فتراءت أشجاره المتباعدة كأنها سياج شبه متصل من الخضرة اليانعــة تتخللها رءوس المصابيح الكهربائية البيضاء . كل هذا العمران والجمال قائم فى الطريق الذى يعيش فيه من قديم وهو لا يدرى به ! . ماذا يعرف من هــذه الدنيا العجيبة ؟ ! . وماذا يفعل بماضيه المثقل ؟ . وتنهد فى حزن كأنه بنيان يتقوض . ورجع الى مسكنه وهو يلهث من الانفعال فوجد امرأته جالسة تتشمس فجلس الى جانبها وهو يقول :

ـــ لم أكن أتصور أن شارعنا على هذا القدر من الجمال !

فتساءلت :

ـــ ماذا حدث له ؟

ـــ شارع جديد ، ممهد ونظيف ، والفيللات والأشجار !

فقالت بدهشة :

ـــ هو كذلك طول عمره ..

ـــ لكننى لم أره الا اليوم !

فرمقته بنظرة فاترة لكنها ناطقة بأمرّ انتقاد وتأنيب فتقبلها خاضعا ، وتساءل فى لهفة ترى هل فى العمر بقية لاصلاح الماضى الفاسد ؟ . للاعتذار عن كل هفوة ، والتكفير عن كل جريمة ، وتحويل الأعداء والضحايا الى أصدقاء ؟ ! . وفكر مليا ثم قال بحماس طفلى :

ـــ ألا يمكن أن يبدأ الانسان حياة جديدة ولو فى مثل عمرى ؟

ـــ أى حياة ؟ !

ـــ جديدة بكل معنى الكلمة ، أرجو أن تجيبى بأن هذا ممكن ..

فساورها حب استطلاع مشوب بقلق وقالت :

ـــ لا أفهم ، ماذا تعنى ؟

ـــ سوف تفهمين ..

جديدة بكل معنى الكلمة . والا فكيف يحتمل العمر الباقى ؟ . هل ينسى يوم الأربعاء ؟ . وأغمض عينيه كمن يتذكر أشياء مستعصية . وكانت تتابعه بعينين قلقتين فما لبثت أن ساءلت نفسها : ترى لم يبتسم هكذا ؟ .

وكان حقا يبتسم . ابتسامة جديدة ، لا نفاقا ولا تشفيا ولا استفزازا ولا سخرية ولا مكرا ولا تحريضا ولا ولا .

ابتسامة صافية .

# حَـادثة

كان يتكلم فى تليفون الدكان بصوت مرتفع ليسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخبة . وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء ، ثم ختم حديثه بقوله « انتظرنى ، سأحضر فورا » ، وأعاد السماعة الى موضعها وتناول علبة سجائر هوليود من فوق الطاولة ونقد البائع نقوده — ثمن العلبة والمكالمة — واستدار فوق الطوار متجها نحو الطريق . كان فى الستين أو نحوها ، طويل القامة نحيلها ، كروى الجبهة والعينين ، مكور الذقن ، وأما صلعته فلم يبق فوق مرآتها الا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه ، وقد أفصح مظهره عن اهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات . على ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة ، وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج ، فأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ، وبدا أنه ينظر الى الداخل لا الى الطريق ، ثم مال يمنة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة لصق الطوار حتى وجد منفذا الى الشارع . ونفض السيجارة وهو يبتسم ، ثم مرق من المنفذ ليعبر الشارع الى ضفته الأخرى . وما كاد يجاوز مقدمة اللورى الأخير حتى شعر باندفاع سيارة فورد نحوه بسرعة فائقة . وقال أحد الشهود فيما بعد انه كان عليه أن يتراجع بسرعة ، وانه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة ، لكنه لسبب ما — لعله المفاجأة أو سوء التقدير أو القضاء — وثب الى الأمام وهو يهتف

« يا ساتر يا رب » . وجرت الحوادث متلاحقة . ندت عن الرجل صرخة كالعواء ، وفى ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة والواقفين على الطوار وفوق افريز محطة الترام . ورئى الرجل وهو يرتفع فى الفضاء أمتارا ثم يهوى فوق الأرض كشىء غير آدمى . وصدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهى تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة . وهرع نحو الضحية فى ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر فى المنطقة الهرج . ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة ، وكان منكفئا على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه ، واحدى رجليه ممـدودة الى آخرها ، والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر وقد فقدت فردة حذائها ، وتغشاه صمت بخلاف كل شىء حوله كأن الأمر لا يعنيه البتة . وألصق سائق الفورد ظهره بالسيارة من باب الحيطة وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أحدقت به على سبيل المراقبة :

— لا ذنب لى ، اندفع هو من أمـام اللورى فجـأة ، وبسرعة ، ودون أن ينظر الى يساره كما يجب ...

واذا لم يجد وجها مستجيبا عاد يقول بلهجة خطابية :

— لم يكن فى الامكان أن أتجنب صدمه ...

وند عن المصاب صوت كالزفير المكتوم ، وتحرك حركة شاملة مباغتة ، ثانية واحدة ، ثم غرق فى اللامبالاة ..

— لم يمت ! ، حى ..

ــ لعلها اصابة بسيطة ..

ــ لكنه طار فى الهواء والعياذ بالله !

ــ ولو ، عفو ربنا كبير ..

ــ لا يوجد دم ؟

ــ عند فمه ، انظر ..

ــ كل ساعة حادث من هذا النوع ..

وجاء شرطى مسرعا ففتح له وقع قدميه ثغرة فى السور الآدمى نفذ منها وهو يصيح بالناس أن يبتعدوا . فابتعدوا خطوات ، خطوات فقط ، وأعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخف حدة تطلعها واشفاقها . وقال انسان :

ــ سيبقى هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئا ..

فأجابه الشرطى بلهجة رادعة :

ــ أقل لمسة قد تقتله ، وبوليس النجدة والاسعاف فى الطريق اليه ..

واعترض الحادث جانب الطريق فاضطرت السيارات الى الالتفاف حول السور البشرى مشاركة الترام فى ممشاه فضاق بها حتى تحركت فى بطء شديد وتجمعت فى صفوف ممتدة ومتداخلة وهى تصرخ وتعوى بلا فائدة ، ومن ركابها تطلعت أعين الى الضحية فى اهتمام ، وأعين تجنبت النظر فى جزع . وجاء بوليس النجدة وراء صفاراته الحلزونية فاتسعت الحلقة ، وغادرت القوة السيارة الى الرجل الملقى ، وكان الضابط حاسما



وحازما فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين ، وتفحص الرجل بنظرة شاملة ، وسأل الشرطى :

ــ ألم تحضر الاسعاف .. ؟

واذا لم تكن ثمة ضرورة الى السؤال فانه لم يلق بالا الى الجواب ، وتساءل مرة أخرى :

ــ هل من شهود ؟ !

فتقدم ماسح أحذية وسائق لورى وصبى كبابجى كان عائدا بصينية فارغة • وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث مذ كان الرجل المجهول يتكلم فى التليفون . وجاءت سيارة الاسعاف ، وأحاط رجالها بالرجل ، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء ، ثم نهض متوجها الى الضابط فبادره هذا قائلا :

ــ أظن يجب نقله الى الاسعاف .. ؟

فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عن الأثر الذى يحدثه عادة جرس سيارته :

ــ بل يجب نقله الى مستشفى الدمرداش ..

وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الاسعاف قائلا :

ــ أعتقد أن الحالة خطيرة جدا ..

وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص بمستشفى الدمرداش كانت طلائع الليل تزحف كالجبال . وفحصه مدير القسم بنفسه ، ثم التفت الى مساعده قائلا :

ـــ اصابة خطيرة فى الرئة اليسرى ، تهدد القلب مباشرة ..

ـــ عملية ؟

فهز رأسه قائلا :

ـــ انه يحتضر ..

وصدقت فراسة الطبيب فقد تحرك الرجل حركة شـاملة كالرعشة ، واضطرب صدره اضطرابا متلاحقا محشرجا ، ثم شهق شهقة خفيفة واستكن . وكان الطبيبان يراقبانه فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول :

ـــ انتهى ...

وجاء ضابط النقطـة وكان الرجل ما يزال راقدا بكامل ملابسه عدا فردة الحذاء المفقودة . وقال الطبيب :

ـــ هذه الحوادث لا تنتهى ..

فقال الضابط وهو يومىء الى الفقيد :

ـــ وشهادة الشهود ليست فى صالحه !

ثم وهو يقترب من السرير :

ـــ أرجو أن نستدل على شخصيته ...

وشرع فى عمله على حين بسط الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة وتأهب بدوره لتسجيل المحضر . ودس الضابط يده برفق فى جيب الجاكتة الداخلى فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيبا جيبا ويملى على الشاويش :

ـــ خمسة وأربعون قرشا من العملة الورقية ..

روشتة للدكتور فوزى سليمان ..

وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها أيضا فجرى بصره عليها بلا ارادة فاذا بها : المـواد الكحولية والبيض والدهنيات ممنـوعة ، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاى والقهوة والشيكولاطة . وابتسم الضابط ابتسامة باطنية اذ أن تعليمات مماثلة صدرت اليه من طبيبه فى نفس الشهر ! ، ثم واصل املاءه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها :

ــ مجلد صغير من السور القرآنية ..

ولما لم يجد شيئا آخر فى الحافظة قال بضيق :

ــ لا توجد بطاقة تحقيق شخصية !

وانتقل الى الجيب الداخلى الصغير وما لبث أن قال بفتور :

ــ ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية ..

ووجد أيضا حقا صغيرا فرفع غطـاءه المحكم فرأى مادة غريبة كالبن المسحوق ، وامتلأ أنفه برائحة مسكية ، ثم ما لبث أن عطس عطسة من الأعماق ، فأعاد الغطاء الى موضعه وقال بعين دامعة :

ــ حق نشوق ..

وتوالى التفتيش وتتابع الاملاء :

ــ منديل ، علبة سجائر هوليود ، سلسلة مفاتيح ، ساعة يد ..

وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسة فبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد ، فأمل أن يصادف فيها

ما يمكن أن يستدل به على شخصية الرجل . نظر أول ما نظر الى الامضاء ولكنها لم تزد عن « أخوك عبد الله » فعاد الى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة الى « أخى العزيز أدامه الله » ، فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدا من قراءتها .

أخى العزيز أدامه الله :

اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة .

اضطر الى التوقف رافعا عينيه الى تاريخ الرسالة ، وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير ، وامتد بصره فوق الأسطر الى الوجه الباهت المشوب بزرقة مخيفة ، المغلق كسر ، الجامد كتمثال ، ذلك الذى تحقق أكبر أمل له فى الحياة . وتساءل الطبيب :

— عثرت على شىء ؟

فانتبه الى نفسه وابتسم ابتسامة استهانة ليدل على اعتياده أى شىء وقال :

— اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة ، بذلك بدأت الرسالة !

وعاد الى القراءة متجنبا النظر الى عينى الطبيب . « فقد نزحت عن صدرى الأعباء المريرة ، انزاحت جميعها والحمد لله ، أمينة وبهية وزينب فى بيوتهن ، وها هو على يتوظف ، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وقلقه وشقائه أحمد الله المنان ، وهذا هو النصر المبين » .

واســترق النظر مرة أخرى الى الانسان الراحل ، الذى لا يدرى أحد مقــره ، الذى يثير الدهشــة بصمته وانعزاله وارتداده العميق الى المجهول . المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين ! .

« وبعد تفكير طويل قر رأيى على ترك الخدمة » . فعلا . « فهيهات أن تتحسن صحتى طالما بقيت فى المدينة ، وحسبت الحسبة فوجدتنى أخدم فى الحكومة بثلاثة جنيهات هى الفرق بين المرتب والمعاش ، لذلك قررت أن أطلب احالتى على المعاش ، وقريبا أعود الى البلدة ان شاء الله ، وسوف أنضم الى مجلسك الظريف عند عبد التواب شيخ الخفر ، أما الآن فكل شىء بخير وليس فى الامكان خير مما كان » .

وطوى الضابط الرسالة وهو يقول :

ـــ انه موظف كما يفهم من خطابه ولكن ليس به ما يمكن الاستدلال على هويّته !

فقال الطبيب :

ـــ سنتخذ الاجراءات المألوفة وغالبــا ما يجىء أهله فى الوقت المناسب فيتسلمون الجثة من المشرحة ..

# حنظل والعسكري

هذه الأقدام الثقيلة تبعث وقعا له فى صدره صدى مخيف ، والنحنحة الصادرة عن صاحبها نذير بالمتاعب والآلام ، انه الشاويش قادم فى ظلمة الليل . تمنى أن يفر من وجهه لكنه لم يستطع ، وبكل مشقة قام وهو يلقى بثقله على الجدار فى أول المنعطف ، وكان يترنح ، وحاله تنذر بالانهيار فى أية لحظة .
وفتح عينيه بجهد صوب القادم كالقدر ، حاول كثيرا أن يتحرك فتبددت محاولاته فى الظلام ، كما بعثرت ذكرياته ، ولاح على شعاع الفانوس وجهه الكالح المغبر الفظ كالنائم ، ولم يكن على جسده الا بقايا جلباب ممزقة ، وباطنه المجنون يحترق رغبة فى الحقنة المحرمة .

— حنظل ، تعال ...

آه . هذا النداء المشئوم تعقبه الصفعات واللكمات . وبصوت يائس مكروب توسل قائلا :

— رحمة لله يا حضرة الشاويش ..

وقف أمامه حاجبا عنه شعاع الفانوس ، شابكا بندقيته بكتفه فاشتد التصاق حنظل بجدار عطفة شنافيرى . كان يعانى الخوف ويدافع الغيبوبة ويعلن المسكنة ، ولكن ما بال الشاويش لم يهدر ولم يلعن ولم يصفع ؟!

— أخذت الحقنة ؟

— لا وربك .

ـــ لكنك نائم أو كالنائم !

ـــ لأننى لم آخذها ..

ـــ تعال معى ، المأمور يطلبك !

فتنهد من صدر مجنون جائع وهتف :

ـــ أنا فى عرضك ..

فوضع على منكبه يدا آدمية ، لا حديدية ولا عسكرية ، فتعجب حنظل دون أن ينبس ، فقال الشاويش :

ـــ تعال ولا تخف ..

ـــ لم أفعل شيئا !

مضى به برفق وهو يهمس له :

ـــ ستجد أن كل شىء طيب ، لا تخف ..

وقف فى حجرة المأمور على مبعدة متر من بابها الذى أغلق وراءه ، لا يتقدم خطوة ، ولا يرفع عينيه الى النظرة التى تستقر عليه من وجه محنك ، والضوء الساطع مسلط على جسده الطينى الذى لا يكاد يستره شىء وقد بدا بين الجدران البيضاء الملساء والأثاث الوقور شيئا متخلفا عن الزمن . توقع حنظل صاعقة ولكن جاءه صوت المأمور فى نبرة آدمية غير منتظرة ككل شىء فى تلك الليلة :

ـــ اجلس يا حنظل ، مساء الخير ..

يا رب السماوات ! ، ماذا جرى للدنيا ؟!

ـــ أستغفر الله يا حضرة المأمور ، أنا خادمك !

ولكنه حدجه بنظرة تأليب وهو يشير بأصبع آمر الى مقعد

جلدى ، فتردد كثيرا ، ثم لم ير بدا من الاذعان فجلس على طرف المقعد وهو ينظر الى قدميه الترابيتين ، فى ضخامة قدمى تمثال ، المطمورتين تحت طبقات من القشرة الأرضية . ورغم ذلك لم يصدق شيئا فقال فى ذل :

ــ يا حضرة المأمور ، أنا رجل مسكين ، كثير الخطايا ، ولكن بؤسى أفظع من خطاياى ، والرحمة عند الله مفضلة على العدل ..

فقال المأمور بنبرة جادة ورقيقة فى آن :

ــ اطمئن يا حنظل ، أنا عارف أنك أخطأت كثيرا ولكنك قاسيت أكثر ، وأنت أدرى بذنوبك ، والشاويش معذور فى قسوته عليك فالقانون هو القانون ، ولكن جدت أمور أوجبت تغيير المعاملة ، تغير كل شيء ، ونحن كما أن لنا جانبا عسكريا فلنا فى ذات الوقت جانبنا الانسانى ..

وجعل ينظر الى المأمور بذهول وهو يغالب عشقة سلطان الغيبوبة فرمقه الرجل برثاء وقال :

ــ صدقنى يا حنظل ، صـــدق كل ما تسمع وما ترى ، رأسك لا يقوى على التركيز لأنك لم تحقن ؟ ، نفد آخر نقودك ولم تحقن ، وتاجر السم لا يرحم ويطالب بالدفع المقدم ، لكنك ستشفى من هذا كله ..

فقال حنظل بصوت باك :

ــ أنا مسكين ، حياتى حظ عاثر ، كنت قويا فضعفت ، وبياعا فأفلست ، وأحببت فتلوعت ، وأدمنت ، ثم تسولت ..

ـــ ستخرج من المصحة رجلا جيدا ، ولى معك لقاء آخر..

وفى باحة القسم أحاطت به مجمـــوعة من العساكر فبحكم العادة تكور جسده كأنما يتقى ضربة ، ولكنهم ابتسموا اليه ، انفرجت الشفاه الغليظة تحت الشوارب الثائرة ..

ـــ أنتم !؟

ـــ نعم يا حنظل ، كل شيء تغير ..

ـــ بالشفاء يا حنظل ..

ـــ ليعف الله عما سلف ..

وحمل وهو بين النوم واليقظة ، وسرعان ما استسلم للنوم فى عربة راحت تتأرجح به الى ما لا نهاية . وفتح عينـــيه على حجرة غريبة ، رآها بياضا ناصعا وضوءا باهرا كما رأى وجها حانيا . وشعر بضعف وتقزز ، وغثيان ، ووحدة فى الأعماق ، وخوف ، فتوسل قائلا :

ـــ الحقنة ، الحقنة يا عم متبولى ..

وداعبت أذنه ضحكة رقيقة ، وسطعت أنفه رائحة نفاذة ، وعانى جوعا منهكا فى الرأس وفى الحواس ، وتشققت أركان رأسه ، ثم غاب عن الوجود . وغادر حنظل المصحة رجلا جديدا كما وعد المأمور . تجلت صورته الطبيعية لأول مرة ورفل فى جلباب أبيض فضفاض . وحلق ذقنه فتبدت قوة شاربه واتتعل مركوبا أصفر فاقعا . ووضح وشم الأسد فوق معصمه ووشم العصفورة عند سوالفه تحت لاسة مزركشة . ومضى به شاويش كالصديق ، كل شيء صديق ، فتراءت بشرته سمراء صافية

تحت الشمس ، وما تمالك أن ضحك ، وقال لنفسه ان وزنه سيخف بعد النظافة ، وكان صاحيا واعيا يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويحب الشاويش ولا يستشعر فى جوفه الألم . وامتلأ ثقة بالنفس حتى خال أن بقدرته أن يطير ، وصدق ما يحيط به ، فلم يدهش عندما أقبل عليه العساكر مهنئين ، وتصافحوا بحرارة ومودة فى شبه مظاهرة فى باحة القسم . ولم يدهش كثيرا عندما رأى المـأمور يقف لاستقباله ، ولكنه تأثر جـدا ، وبروحه المتواضعة ارتمى على يده يريد أن يقبلها ولكن المأمور تلقاه بين ذراعيه وشد عليه برحمة فتذاوب خجلا وامتنانا وفاضت عيناه بالدمع . وأجلسه الرجل على المقعـد وعاد الى كرسيه وراء المكتب وهو يضحك ضحكة رطيبة صافية ، وقال :

— مباركة عليك الصحة والعافية .

فاغرورقت عيناه فاستطرد المأمور قائلا :

— الآن تستطيع أن تبدأ من جديد ..

فقال بدموعه المنهمرة :

— بفضل الله وبفضلك ..

— لا تبالغ فالفضل لله وحده .

وفتح المأمور دفترا بين يديه وأمسك بالقلم وخط عبارة فى رأس صفحة بيضاء ، ثم قال بهدوء وهو يرمقه بنظرة هادئة وعميقة كضوء القمر :

— اطلب ما تشاء يا حنظل !

فارتبك الرجـل ولم يحر جوابا . تحركت شفتاه فتحرك



شاربه الفطرى ولكنه لم يحر جوابا ، فحثه المأمور قائلا :

ـــ اطلب ما تشاء يا حنظل ، هذا أمر .

ـــ ولكن ..

ـــ لا لكن ، اطلب ما تشاء .

فقال بعد تردد :

ـــ أطلب الستر ..

ـــ أفصح ، اطلب ما تشاء ، هذا أمر ..

تذكر حنظل دعاء أم ، وحكايات الليل ، وأنغام الرباب ، ثم ضحك قائلا :

ـــ كنت أسرح بعربات الفاكهة !

فقال المأمور ويده تكتب فى الدفتر :

ـــ دكان فاكهة بالحسينية ، رفوف مزدوجة ، كهرباء لحسن العرض ..

فتساءل فى ذهول :

ـــ والنقود ؟

ـــ لا تشغل بالك ، هذا أمر يخصنا ويخص الجميع ، تكلم ماذا تطلب ، انه أمر !

ووجد حنظل شجاعة جديدة ، مستمدة من شخصه الجديد ودكان الفاكهة ، فقال بصوت متهدج :

ـــ سنية بيومى بياعة الكبدة ، الحق انى ..

فقال المأمور ويده لا تكف عن التسجيل :

ـ لا داعى للشرح ، كله معلوم ، يعرفه عسكرى النقطة ، وكل عسكرى ، وخفير السوق ، سنية شابة مليحة وجريئة ، ولم تتزوج بعد رغم ما كان ، وفى وقت ما كانت أفتك بك من الهوريين ، وتمادت فى قسوتها فاشتدت حالتك سوءا ، وهجرتك ، لكنها ستعود اليك ، لتكن دكان فاكهة وكبدة ، سيكون ذلك شيئا فريدا فى الحسينية على مثال محال البقالة الراقية جدا ، غيره ؟ !

مال رأسه من التأثر . وحلمت عيناه بأديم أخضر تنبثق منه ورود حمراء مطوقة بدوائر من البنفسج ، وطنت فى أذنه نغمة تردد : « يا منية القلب قل لى » ، لكنه رأى بقعة سوداء كسحابة من الذباب فاقشعر بدنه وقال باشفاق :

ـ أخشى ألا تدوم صداقة العساكر يا سيدى المأمور ، وانه وان يكن لشقائى الماضى أسباب كثيرة فان العساكر كانوا من الأسباب الهامة فى ذلك ، طالما طاردوا عربتى لسبب ولغير ما سبب وصادروا رزقى وضربونى ، وفى مسألة سنية بالذات فان أول من لعب بعقلها كان العسكرى حسونة !

فارتفعت الضحكة الرطيبة الصافية مرة أخرى وقال المأمور بلهجة لا تدع مجالا لشك :

ـ لن تجد فى العساكر عدوا واحدا لك ، هم من اليوم والى الأبد أصدقاؤك المخلصون ، اطلب ما تشاء يا حنظل ، هذا أمر .. !

وغل حنظل بسكرة شجاعة لم ينعم بها حتى أيام الفتونة ، شجاعة مؤيدة بدكان فاكهة وكبد ، وحب سنية ، وصداقة العساكر ، فقال :

— أمثالى من الفقراء كثيرون لعلك يا حضرة المأمور لا تعرفهم ..

فقاطعه قائلا ويده تكتب دون انقطاع :

— أعرف كل شىء ، دلنا عليهم ، وسيكون لكلٍ دكانه وامرأته وصداقة العساكر ، سيتحقق هذا كله فاطلب ما تشاء ، انه أمر ..

فضحك حنظل ضحكة مجلجلة وشبك راحتيه وشد عليهما وهو يقول :

— كأننى فى حلم !

— الواقع نوع من الحلم ، والحلم نوع من الواقع ، اطلب ما تشاء ، انه أمر ..

فتنفس فى ثقة وامتلاء وتساءل :

— كم من المسجونين من يستحق السجن حقا ؟ !

فقال المأمور ويده تجرى على الصفحة :

— سيخرج من السجن كل من لا يستحق السجن حقا ولو فرغت السجون !

فهتف حنظل فى نشوة :

— ليحيا العدل ، ليحيا المأمور !

وشهد حوش بيت حنظل بعطفة الشنافيرى حفــلا فريدا حضره المأمور والعساكر والفقراء وطلقاء السجون . وارتدت سنية فستانا برتقاليا وتلفعت بشال أخضر فلم يظهر من جسدها البض الا معصم محلى بأسورة ذهبية وأسفل ساق مطوقة بخلخال فضى بشراريب من أهلة . وكانت تقدم بنفسها الشراب ، شراب التمرهندى والكاركاديه . وثمة فرقة موسيقية عليها مسحة من شارع محمد على احتلت ركنا وراحت تحيى القادمين . واستمتع كل شخص بحريته حتى العساكر غنوا ورقصــوا تحت بصر المأمور . ثم وقف مقــرىء بين مذهبجية ومضى يتغنى بمديح الرسول مترنما :

لما بدا لاح منار الهدى

فتصاعدت آهات الطرب من صدور الفقراء والمســاجين والعساكر وزغردت سنية زغرودة كأنما تصــدر عن ناى . وفى ختام الحفل وقف المأمور وخاطب الجميع قائلا :

ــ أول الغيث قطر ، ثم ينهمر ، طاب ليلكم .

وزغردت سنية مرة أخرى . وأخذ المدعوون فى الانصراف عند الفجر ، والديكة تسبح لله ، والصمت يسبّح ..

واستلقى حنظل على الأريكة ليرتاح بعد عناء فجلست سنية عند رأسه وراحت تداعب قصة شعره . كان ســعيدا مطمئنا راضيا لا يريد لشىء نهاية . وقال برقة :

ــ أنت أصل الخير كله ..

فامتدت أصابعها الى سوالفه كأنما تزقق عصفورة الوشم فعاد يقول :

— جميع ما حصـــل لا أعتبره معجزة ، المعجزة أن قلبك لان بعد ما كان ..

وانسابت يدها الى خده فذقنه ثم استكنت على حنجرته . واستسلم لمداعباتها ، وود فى أعماقه ألا يكون لشىء نهاية ، غير أنه انتبه على احساس غريب ، يشبه الضـــغط على حنجرته ، واشتد بدرجة خرجت عن مألوف كل مداعبة . وقرر أن يطلب اليها أن تخفف من ضغط يدها ولكن صوته لم يخرج واشتد الضغط . ومد يده ليزيح يدها عن عنقه ولكنه شعر بكابوس يرزح فوق صدره ، وبثقل سمج ، زكيبة رمل ، أو قطعة جدار هوت فوق رأسه . أراد أن يتأوه ، أن يقوم ، أن يتحرك ، فلم يستطع . وحرك رأسه بعنف ليتخـــلص من الكرب فاحتكت بالأريكة . بشىء يشبه الأرض ، التراب ، بل ثمة طين أيضــــا ، وغمره شعور جديد فى درجته وطعمه وكآبته ، وسمع صوتا يعرفه يصيح به متهكما :

— لم يبق الا أن تنام فى عرض الطريق !

ما أشبهه بصوت العسكرى ! . العسكرى القديم بصوته الخشن المنذر بالمتاعب . ثم انه يختنق . يد ســــنية لا تريد أن ترحمه . وفجأة رفع الجدار عن صدره فاعتدل جالسا وهو يئن فى الظلام . تخايل لعينيه شبح عملاق يحجب عنه ضوء الفانوس كأنما يمتد فى الفضـــاء حتى النجوم . وديكة الفجر تصـــيح ،

والبندقية تطل من فوق كتف الشبح . وفوق صدره هو ينداح الألم فى الموضع الذى تخلى عنه الحذاء الغليظ . وهتف :

— أين عهد المأمور يا شاويش ؟ !

فركله بلا رحمة وصاح به :

— عهد المأمور ! ، يا مجنون يا مدمن ، قم ع القسم ..

ونظر حوله فى ذعر وذهول فوجد طريقا نائما ، وظلمة شاملة ، وصمتا ، ولا حفل ، ولا أثر لحفل ، ولا سنية ، ولا شيء ...

# مندوب فوق العادة

كنت أراجع الصحف اليومية ، وهو ما أبدأ به عملى عادة كل صباح ، عندما فتح الباب دون استئذان عن رجل غريب . كان هائل المنظر لطوله وضخامته ، فخم البـدلة ، وطربوشه الطويل الغامق يضفى على وجهه الأبيض نصاعة ، وفيه وجاهة تؤكدها نظارة كحلية وشارب غزير مربع كساه المشيب . كان أيضا فى الستين أو نحوها لكنه تقدم من مكتبى فى حركة قوية ثابتة قابضة يمناه على منشـة عاجية بيضاء وهو يقول بصوت حلقى غليظ :

ـــ صباح الخير ، مكتب الصحافة ؟

فأجبته ولما أفق من صدمة اقتحامه :

ـــ نعم ، صباح النور !

ـــ أظنه تابع لمكتب الوزير ؟

ـــ نعم ..

فأخرج حافظته ، واستخرج منها بطاقة أعطاها لى . نظرت فيها فقرأت :

اسماعيل بك الباجورى

مستشار برياسة مجلس الوزراء

انفجرت « الرياسة » فى رأسى ، ولم يكن قد مضى على خدمتى الا عام أو دون ذلك بأشـهر ، ووقفت باحترام وأنا أبتسم كالمعتذر ، وقلت بتأثر ظاهر :

— تفضل بالجلوس يا فندم ، أنا فى خدمتك !

لكنه مشى موغلا فى الحجرة الصغيرة المستطيلة حتى وقف وراء النافذة فى نهايتها يطل على ميدان الأزهار ، ثم عاد الى مكتبى وهو يسأل :

— ألم يحضر معالى الباشا ؟

— كلا ، معاليه يحضر حوالى العاشرة .

— ولا مدير مكتبه ؟

— المدير يحضر حوالى التاسعة ..

فانحرف جانب فيه الأيسر فى امتعـاض ، ثم مد يده الى سركى الوارد وراح يفره بسرعة ثم قال :

— خانات كثيرة لم تسدد ، هاك شكوى لم يرد عليها منذ عشرين يوما !

فانقبض صدرى وأنا أتساءل على وجه من أصبحت اليوم ، ثم قلت :

— انى أوزع الشـكاوى المنشـورة فى الصـحف على الادارات المختصة فى يوم ظهور الجريدة والادارات هى التى تتأخر فى الرد ..

— ولم لا تستعجلها ؟

— أستعجلها طبعا ولكن بعض الردود يستدعى التحرير الى التفاتيش فى الأقاليم .

فهز رأسه فى امتعاض ثم أشار الى الباب وهو يقول بلهجة آمرة :

ـــ اتبعنى من فضلك ..

وسار فى ردهات الوزارة وأنا أسير الى جانبه متأخرا عنه خطوة من باب التأدب ، من ردهة الى ردهة ، حتى أخذنا فى طريق العودة وهو لا يمسك عن نثر الملاحظات :

ـــ مكاتب خاليــة ، أين الموظفون ؟ ! ، حتى السـعاة ، والفراشـون كالذباب الغائم ! ، ما هـذه الزكائب المحشوة بالأوراق ؟ ، وهذه الزبالة ؟ ، وتلك الأكداس المكدسـة من الملفات كالمقابر ! ، ورائحة الزيت والبصـل ! ، ما شاء الله .. ما شـاء الله ..

وجعلت أبدى عن أسفى بهز الرأس والتبسم الحزين وأنا أسأل الله أن ينهى اليوم على خير ، واذا به يقول :

ـــ كل شىء فى غير محله ! .. لو يعلم دولة الباشا !

وعدنا الى الحجرة فوقفت وراء مكتبى على حين جلس على الكنبة فى شبه استلقاء ثانيا سـاقه فوق ركبته ، والظاهر أنه رحم ارتباكى فقال لى :

ـــ اجلس ..

فجلست متشجعا بنبرة رقيقة انتزعتهـا انتزاعا من غلظة صوته . ومضى يتفحصنى من وراء نظارته الكحلية فى غير مبالاة ثم سألنى :

ـــ من الجامعة ؟

ـــ نعم ..

ــ لم توظفت ؟

فلم أحر جوابا فقال :

ــ قل لأعيش ! ، كلنا يريد أن يعيش ، لكن الحياة تجرى على غير ما يجب !

فخفضت رأسى موافقــا ولا شىء أحب الى من أن يحضر مدير المكتب ليخلصنى من موقفى الرهيب .

ــ أنا مكلف بعمل بحث شامل ، مهمة شاقة ، ولكن هل ثمة فائدة ؟

تأثرت جدا لتعطفه بالبوح بمهمته الخطيرة وازددت فى الوقت نفسه حرجا فقلت :

ــ ستجىء الفائدة حتما على يديك !

فتثاءب لدهشتى ، وحل صمت مقلق ، وكان يبدو عظيما جدا ، ولعله ضاق بالصــمت والانتظار فراح يتحدث وكأنما يحدث نفسه هذه المرة :

ــ على المرء أن ينشــد الطمأنينة والصــفاء ولكن كيف يتأتى هذا ؟ !

فقلت وأنا فى شك من سلامة تدخلى فى الحديث :

ــ ربنا يهب سعادتك الصحة !

فأنزل ساقه عن ركبته قائلا :

ــ الصحة ! ، ما هى الصحة ؟ ، هى كمال التوازن والتوافق والتعاون فى الكائن ، ولكن هيهات أن تتحقق اذا كانت الصحة

العامة معتلة ، خذ مثلا صحة الوزارة ! ، خانات لم تسدد ، موظفون لا يحضرون ، روتين ، وما الرأى فى هذا الغلاء الفاحش ؟ ! .

فقلت وأنا أتابعه بجهد وأى جهد :

— شىء لا يطاق ..

— العالم أيضا صحته معتلة ، هتلر ورم خبيث ، والخلفاء ورم آخر ، والأوقاف عندكم لماذا يستحق بعض الأوباش هذه الألوف المؤلفة ؟ !

فقلت رغم دبيب الدوار فى رأسى :

— فلنأمل خيرا ما دام دولة الباشا مهتم بهذه المسائل !

فنهض بغتة وهو يقول :

— ولكن متى يأتى الوزير ؟ .. الساعة العاشرة ! ، ومتى يأتى مدير مكتبه ؟ .. الساعة التاسعة ..

ونظر فى الساعة ثم جلس مكفهر الوجه . واتجهت عيناه نحو التقويم المثبت بالجدار ، الأربعاء ٢ يونيه ، ٢٩ جمادى الأولى ، ٢٥ بشنس ، وتساءل فى ملل :

— كم ورقة يجب أن تمضى حتى تصبح الصحة على ما يرام ؟

ثم حدجنى بنظرة متحرشة هرب لها قلبى ، ولكن سرعان ما حلت محلها نظرة دعابة وهو يسأل :

— ماذا تريد من الدنيا ؟

فارتبكت مؤثرا الصمت ، ولما آنست انتظاره لجوابى تكلمت يدى باشارات مبهمة سابقة لسانى ، ثم قلت :

— أشياء كثيرة !

— تكلم !

فاستجمعت شجاعتى قائلا :

— مرتب حسن ..

— والصحة ؟ !

— لا بأس بها ..

— وكم من النقود تريد ؟

— ما يكفينى ..

— يكفيك لأى شيء ؟

— حسبى الضروريات ، والكماليات الهامة ، وأن أتمكن من تكوين أسرة ..

— والآخرون ألا ينبغى لهم ذلك أيضا ؟

— نعم ، لم لا !

— عند ذلك ترتاح النفوس من الانفعالات الخبيثة ..

فقلت بارتياح حقيقى :

— نعم يا فندم ..

فقال بحدة ساخرة :

— كلا ! ، لا يكفى هذا كله ، سيظل هناك هتلر ، وتشرشل أيضا ، هذه هى العقدة المحيرة ، لقد كلفت بالبحث ولكننى كلما وجدت حلا لمشكلة عرضت مشكلة أخرى ، وكلما أزلت

دملا ظهر دمل جديد ، كأن الرحلة يجب أن تشمل العالم كله ..

فغمغمت بذهول :

ــ العالم !

ــ نعم العــالم ، راقب آثار الحرب فى بلادنا ان كنت فى حاجة الى دليل ، أمور كثيرة معقدة ، ومشاكل لا حصر لها ، فكر فى أن تنعم بالجبال فى ســويسرا فسيقال لك انها مهددة باجتياح الجيوش الألمانية ، أو أن تستظل بشجرة بوذا فى الهند فستجد جوا مشحونا بالتعصــب والانفجار ، وقد تتطلع الى زيارة موسكو ولكنك لن تعود ، والغــلاء ؟ ، ألم يبلغ حدا لا يتصوره عقل ؟ !

ولهث خيالى فى اعياء ، ولم أعد أفهم شيئا ، ولكنى عكفت على النزر اليسير الذى وجدت له معنى فقلت :

ــ الغلاء فاحش جــدا ، والطماطم نادرة الوجود ، أما البطاطس فبات أسطورة ..

ولاح فى نظرته الكحلية تفكير ، وشىء من الحزن والفتور ، فتساءل :

ــ أتحل هذه المشاكل اذا حددنا المرتبات ؟

ــ أى مرتبات يا فندم ؟

ــ يصــدر مرسوم بأن أعلى مرتب لا يجوز أن يزيد عن كذا ..

ــ كذا ؟

ـــ ألا تنتشر تبعا لذلك الطماطم ؟ ، ويظهر البطاطس ، وتهبط أجور المساكن ؟

ـــ ولكن الدنيـــا ليست موظفين فحسب ، هناك تجار ، ورجال صناعة أصحاب أراض ، وهناك أيضا الأجانب !

فهز رأسه كالمتعب وقال :

ـــ ويوجد هتلر وموسولينى وتشرشل ، وأكاذيب لا حصر لها ، وصرخات زنوج تصم الآذان ..

يا له من شخص غريب ، ليس له جبروت المستشارين ، ولا جلال الرياسة المخيف ، بل وفيه جانب لطيف لا يكاد يفصله عن .. ماذا أقول ؟ ، عن التهريج الا خطوة ؟ ! ، بيد أنى قررت أن أستمسك بالحذر الشديد حتى النهاية . وقلت برقة ورجاء :

ـــ هذه أمور محيرة ، ولا سبيل الى حل مشاكلها ، أو أنه سبيل طويل لا يعلم مداه ، ولكن هناك سبيل ميسور قريب المنال لو أقنعت صاحب الدولة مثلا بزيادة علاوة الغلاء ؟!

فحدجنى بنظرة استغراب وهو يقول :

ـــ أتريد أن تحول مهمتى الخطيرة الى مجرد مسعى شخصى لتحسين حالتك ؟

فاحترق وجهى بالخجل وقلت متلعثما :

ـــ لا أقصد ذلك ولكن ...

فقاطعنى بقوة :

ـــ ولكن عيبنا أننا نفكر فى أنفسنا ولا شىء غير أنفسنا ..

ونظر فى الساعة وهو يقول متسخطا :

ــ الوزير فى الساعة العاشرة ، مدير المكتب فى التاسعة ، ضاع سدى جميع ما قصدته من التبكير !

وتذكرت بغتة واجبا فاتنى لشدة ارتباكى فهتفت :

ــ لم أطلب لسعادتك القهوة !

ومددت يدى نحــو الجرس ولكنه أوقفها بحــركة آمرة وساخطة وقال بحدة :

ــ نحن فى مقبرة لا قهوة !

ثم بشىء من الهدوء ..

ــ قلت ان عيينا انا نفكر فى أنفسنا ولا شىء غير أنفسنا ، الحق ان لى من القدرة ما أستطيع به أن أبلغ الصــفاء ، على فقط أن أعتزل العــالم وهمومه ، وهو صفاء حقيقى أسمع فى سكونه الأبيض موسيقى النجوم ، على فقط أن أعتزل العالم وهمومه ، لكنى لا أستطيع ، لا أريد ، للهموم أيضا أنغامها التى يلتقطها القلب ، فاما صحة عامة أو لا صحة على الاطلاق ، هذه هى عقيدتى النهائية ، ولذلك كلفت بالمهمة !

وراح يعبث بشعر المنشة فداخلنى شعور بالحيرة ، وتساءلت عما يعنى الرجل ، ماذا وراء هذه النظارة الكحلية ؟. وعند ذاك فتح الباب وظهر الساعى وهو يقول لى كعادته :

ــ البك المدير وصل .

واستأذنت من المستشار فمضيت من فــورى الى المدير وقلت له :



ــ اسماعيل بك الباجورى المستشار برياسة مجلس الوزراء فى مكتبى :

واتنفض المدير واقفا وهو يتساءل :

ــ اسماعيل بك الباجورى ؟

وفى اللحظة التالية كان يصافحه باحترام بالغ مقدما نفسه اليه ، ثم ذهبا معـــا الى حجرة مدير المكتب . ولبثت وحدى أفكر ، ولما يذهب عنى روع المقابلة وشجونها .

وواصلت عملى فى مراجعة الصحف وأنا مشتت الفكر ، لا يتركز انتباهى فى شىء مما بين يدى . ومضت نصف ساعة أو نحوها ، واذا بالباب يفتح ويدخل مدير المكتب مهرولا . أقبل نحو التليفون وهو يسألنى :

ــ هل تعرف هذا المستشار ؟

فأجبت نفيا . وأدار قرص التليفون .

ــ آلو ، رياسة مجلس الوزراء ؟ ، أنا على عباس مدير مكتب وزير الأوقاف ، من فضلك هل يوجد فى الرياسة مستشار اسمه اسماعيل الباجورى ؟

ــ ...

ــ سعادتك متأكد يا فندم ! ، عندنا شخص بهذا الاسم وهذه الصفة كما هو واضح فى بطاقته ..

ــ ...

ــ آسف على ازعاجكم ، وسأفعل ما أشرتم به ..

ووضع السماعة دون أن ينظـر الى وجهى الضائع ثم أدار القرص ثانية .

ـ آلو ، سعادتك المأمور ؟

ـ ...

ـ على عباس مدير مكتب وزير الأوقاف ، عندنا شخص ينتحل شخصية مستشار بالرياسة ، يتحدث حديثا غريبا ويطلب مقابلة معالى الوزير ، وبالنظر للظروف الدقيقة التى تمر بهـا البلاد فأخشى أن يكون من الارهابيين ..

ـ ...

ـ الواقع ان مظهره مخالف لهـذا النوع من الشباب ، ولكننى أخاف المفاجآت ..

ـ ...

ـ فى انتظارك يا فندم ، أرجو السرعة ..

وأعاد السماعة وغادر الحجرة وأنا فى حال . ووضح الأمر فى القسم . لم يكن الرجل ارهابيا ولكن كان به لطف . واستدعيت أسرته ، واتخذت الاجراءات المتبعة . وقد سمعته وهو يقول للمأمور فى كبرياء غاضب :

ـ الحق على ، ما كان أسهل أن أنعم براحة البال ، الحق على ...

# صورة قديمة

فكرة ومضت فجأة فوعدته بالخلاص من حيرته . ومضت في رأسه عندما مرت عيناه بالصورة المدرسية القديمة . كان يعانى حيرة البحث عن موضـــوع جديد للمجلة كما ينبغى لصحفى مطالب بجديد كل يوم . وفجأة ومضت فكرة . وكانت الصورة معلقة بمكانها من حجـــرة الجلوس منذ أكثر من ثلاثين عاما ، لا تنطق ولا توحى بشيء ولا تكاد ترى ، ولكن بدا أنه آن لها أن تتكلم . ركز انتبـــاهه بحماس فى الصـــورة التى كاد يمحوها طول البقاء . صورة السنة النهائية بالقسم الأدبى من الجيزة الثـــانوية عام ١٩٢٨ . ما الرأى فى دراســـة صحفية عن أصحاب هـــذه الوجوه الفتية ؟ . المدرســـة والحياة ، ١٩٢٨ و ١٩٦٠ ؟ ، فكرة طيبة من ناحية المبدأ ، فهل يستطيع أن يظفر بحقائق تصلح أساسا لبحث طريف ؟ ! . كم من أعوام مضت دون أن يلقى نظرة على هذه الصورة ! . وكم من معالم فيها انطوت الى غير رجعة ، كهذه الطرابيش ، وهؤلاء المدرسين الانجليز والفرنسيين ! . وكانت مجرد نظرة الى أى وجه كافية غالبا لتذكيره بصاحبه وان غاب عنه اسمه ، وان جهل كل الجهل مصيره . ولا أحد بينهم تربطه به اليوم علاقة ، حتى ولا هذا الفتى المثـــير الذى جاوره فى المسكن زمنا طـــويلا ، وتفحص الوجوه مبتدئا بالصف الأعلى فمر بوجهين لا معنى لهما ، ثم وقف عند فتى كان من أبطال كرة القدم ، ولقى حتفه فى مباراة

بين الجيزة ومدرسة أخرى ، حادث لا ينسى ، وتراءى ضحيته في الصـــورة براق العينين معتـــدا بنفسه منحرف جانب الفم في شـــبه ابتسامة ، وهو اليوم عظام . وواصـــل مسيره من وجه الى وجه حتى وقف عند وجـــه نحيل مستطيل ، ذكّره بموقف صاحبه فوق سلم سكرتير المدرسة وهو يخطب خطبة ملتهبة داعيا الطلبـــة الى الاضراب احتجاجا على تصريح ٢٨ فبراير ! . والى جانبه مباشرة برز وجه وجيه يحمل طابع الأناقة والســـلالة الممتازة فـــورد اسم الأسرة على ذاكـــرته بسرعة ـــ الماوردي ـــ فسجله في مذكرته واثقا من سهولة الاهتداء اليه ، فضلا عن انه كان نجما لامعا في الحياة السياسية منذ عشرة أعوام ، فهذا أول عنصر هام في مشروع بحثه . وجرت العينان على الوجوه واحدا بعد آخر فلم ينطق وجه أو يبين حتى بلغتا وجها ليس من السهل نسيانه ، فهو رمز التفوق المدرسي بكل سحره ، أول الفصل ، أول كل فصل ، وأول المدرسة ، الأورفلي وبفضل التفوق وغرابة الاسم بقي في الذاكرة . وفي كليه الحقوق كان له شأن ، ثم عين في النيابة العمومية أيام كان التعيين فيها حدثا هاما ، سيسهل عليه الاهتـــداء اليه بالرجوع الى وزارة العـــدل ، وهو ثاني عنصر هام في دراســـته ، الأورفلي بعد الماوردي . وتحداه وجه جديد بذكرى دامية ، مشاجرة نشبت بينه وبين صاحبه في حوش المدرسة وان لم يذكر من أسبابها شيئا على الاطلاق . وتتابعت الوجـــوه صامتة صمت الحجر حتى جاء الوجه المثير ، الجار القديم ، حامد زهران مدير شركة

« الهرم المدرج » . ابتسم ابتسامة باردة . هذا هو فتى العصر !.
ما زال يذكر بوضوح كيف ترك الجيزة الثانوية ساقط بكالوريا ،
وكيف التحق بخدمة وزارة الحربية بالكفاءة ، ولم تنقطع علاقته
به الا منذ عشرة أعوام حين ترك هو عطفة أبو خوذة بعد أن
فتح الله عليه فى الصحافة . وترامت اليه أخبار عن استقالته من
الحكومة ليشغل وظيفة سكرتير لمدير شركة الهرم المدرج ، ثم
علم آخر الأمر بتولية منصب المدير بمرتب ٥٠٠ج‍م فى الشهر .
يا له من معجزة سـواء فى طفرته الجنونية أو فى تفاهته التى
لا يشك هو فيها . على أى حال سيكون عنصرا هاما وذا دلالة
فى دراسته . دراسـة طريفة كما يأمل . وستعتمد على تحليله
واستنباطاته أكثر من اعتمادها على أحاديث أبطالها المجهولين اذ
أن الطريف حقا ليس أشخاصهم ولكن دلالتهم الاجتماعية .
ومهما يكن من أمر فليؤجل تقرير الصورة النهائية للبحث حتى
يجمع مواده .

وبدأ يطلب مقابلة عباس الماوردى فى عزبته بقليوب بعد أن
علم باقامته فيها عن طريق دائرة الماوردي بميدان الأزهار . وفى
الموعد المحدد كان يقطع الممشى المحفوف بأصص الورد على
الجانبين الى السلاملك . كان القصر تحفة من طابقين وسـط
حديقة مساحتها فدانان اكتظ أدعها بأشجار المانجو والبرتقال
والليمون وأعراش العنب ومربعات ومثلثات ودوائر لا عد لها
من الأزهار والخضرة والجداول . وهو قائم كالمارد وسط فضاء
من الحقول يترامى حتى الأفق ، يغشـاه الصمت والهـدوء

والامتثال ، وتتراءى عن بعد فوق سطحه أجساد منحنية ، بدت ضائعة فى النبات والفضاء . وأقبل عليه عباس الماوردى يرفل فى عباءة فضفاضة ، بوجه ممتلىء مورد وشعر لامع منسرح فوق رأس مستدير كبير ، وفى طوله وعرضه امتداد هائل جعله أشبه بتمثال متلفع بستار قبل ازاحته . حدجه بنظرة باسمة ، لم تخل من دهشة حذر واستطلاع ، وقال مرحبا :

ــ أهلا وسهلا بالأستاذ حسين منصور .

وتصافحا ثم جلسا وهو يقول :

ــ انى أتابع نشاطك الصحفى باعجاب ، وأذكر به زمالتنا المدرسية وان كنا لم نلتق منذ افتراقنا فى الجيزة الثانوية ..

فقال حسين باسما :

ــ تقابلنا مرة خطفا فى البرلمان عام ٩٥٠ أو ٩٥١ ..

فتساءل بحاجبيه « حقا ؟ » ، واستسلما مليــا لذكريات المدرسة ، ثم فاتحه بمقصده من الزيارة .

فقال عباس برجاء :

ــ أليس المستحسن أن تتركنى فى حالى ؟!

ولكن حسين قال متحمسا :

ــ لست من رأيك ، هى دراســة قد تكون خطوة أولى لمتابعة جيل بأسره ، ولن أنشر كلمة عنك قبل الرجوع اليك ، أعدك بهذا ، ولعلى أستغنى عن ذكر الأشخاص كلية ..

لم يعترض وان لم يبد متحمسا . ولم يعلن وجهه عن شىء حتى تساءل حسين منصــور بقلق عما وراءه . ترى هل آلمه

الموقف وما أثار من ذكريات ؟! . مهما يكن من أمر ثرائه اليوم فقد كان بالأمس مليونيرا بلا جدال ، وكان نجما سياسيا بازغا ، نجح فى الانتخابات بالتزكية بفضل جاهه ، ورشحته الأقاويل للوزارة فى أواخر ١٩٥٠ .

— انى أقيم هنا بصفة دائمة ، ولذلك أرسلت ابنى الجامعى الى عمته بالقاهرة ، ولا أكاد أغادر العزبة الا فيما ندر ...

ولانت فراملة فاستفاض حـديثه . قال انه يزرع أرضه بنفسه مستعملا أحدث الآلات الزراعية ، وانه يعنى عناية خاصة بتربية الماشـية والدواجن ، وانه أعد لأوقات الفراغ مكتبة كبيرة ، واختار ركوب الخيل هواية ورياضة . انه قابع فى مملكة صغيرة استغنى بهـا عن العالم كله ، ويود لو يمضى عمره فى حدودها لا يجاوزها . واذا بالآخر يسأله عن الفلاحين !

— أنا فلاح أيضا ، وكذلك كان أبى ، ولا أجـد صعوبة فى التعامل معهم ، انهم قوم طيبون ..

وعاد حسين يتساءل ولكنه عدل عن الموضوع بلباقة :

— ألم ترشح نفسك للاتحاد القومى ؟

فقال بتوكيد :

— اقترح على كثيرون ذلك ، ولكننى سعيد هكذا !

تخيل حسين تلك الحياة الجامعة للفطـرة والحضارة معا ، المنعمة بكل طيب ، المنطوية فى عزلة وكبرياء ، المتعزية باللذائذ الدنيوية والفكرية ، الهـائمة بالليل والقمر والبار الأمريكانى والغرزة البلدى ..

ــ وأصدقاء الماضى ؟

ــ من ؟ ! ، الخاصــة يمضون عندى نهاية الأســبوع أما الآخرون فلا أدرى عنهم شيئا ..

وأبى أن يتكلم كلمة واحدة عن أمر من الأمور العامة فلم يلح عليه وسأله :

ــ ألا تشتاق أحيانا الى السينما مثلا ؟

ــ عندى صالة عرض خاصة ، لا ينقصنى شىء !

وعرض عليه الصورة المدرسية القديمة لعله يدله على أحد منها فتصفحها باسما . ثم أشار الى وجه قائلا :

ــ على سليمان ، أصيب برصاصة فى صــدره على عهد صدقى ، وبسببها عين فى السلك السياسى بعد تخرجه ، ثم خرج أخيرا فى التطهير ...

وأشار حسين الى صورة حامد زهــرانا فهز الآخر رأسه نافيا ، فقال :

ــ حامد زهران ، مدير شركة ، ٥٠٠ جم شهريا !

فتساءل بحاجبيه « حقا ؟ »، ولم ينبس ، والتمعت عينــاه بنظرة ارتياب حائرة ، فأنهى الآخر الحديث .

وفى وزارة العدل اهتدى الى مقر أول المدرسة الأستاذ ابراهيم الأورفلى المستشار بالجنايات . رصده أمام بناء المحكمة حتى خرج متبوعا بالحاجب الذى راح ينادى التاكس ، فأقبل نحوه مبتسما . رمقه المستشار بنظرة داهشة ، ثم ما لبث أن تعرف عليه فمد اليه يده مصافحا . ولما أدرك مقصده بصفة أولية دعاه

الى الغداء معه فحملهما التاكس الى مسكنه بشارع ماهر .
دخلا مسكنا محترما لكنه عادى فى جملته مما أدهش حسين منصور ، ولكن عندما تحلق السفرة معهما ثمانية من الأبناء متقاربى السن زايلته الدهشة .

— نشاطك الصحفى يلفت الأنظار حقا !

فشكره وهو يسترق النظر الى جسده النحيل وعينيه اللامعتين المتعبتين . كم تمتع فى المدرسة بصيت التفوق الساحر !. اليوم لا يعلم باسمه أحد خارج دائرة القضاء . ولما ألمح على مهمته بشىء من التفصيل قال الأورفلى بسرعة :

— لا شأن لعملى بالصحافة ! ، عندما كنت رئيس نيابة وفى أثناء التحقيق فى قضية مشهورة حاولت الصحافة دفعى الى الأضـواء ولكننى أبيت عليهـا ذلك ، الشهرة لا تعنى شيئا للقاضى ، والمتهمون اما أبرياء يجب صيانتهم أو مذنبون تعساء لا يجوز التشهير بهم !

فقال حسين بثقة :

— لا تخش النشر ، انى أقوم بدراسة عن المدرسة والحياة ، واذا شئت رمزت الى اسمك بحرف ، وقد أستغنى حتى عن هذا ..

— وهو الأفضل ، ولكن ماذا تريد على وجه التحديد ؟

فحدجه بنظرة اغـراء صحفية وهما يحسوان القهـوة فى الصالون منفردين ، ولم يبق من الأولاد الا طنين يقتحم باب الحجرة المغلق من آن لآن ..

ـــ أريد أن أسجل رأيك فى جيلنا وفى هذا الجيل ، أهم القضايا التى فصلت فيها ، فلسفتك عن عملك والحياة ..

ومضى يفصح عن آرائه فى تمهل وفى شىء من الحياء ! ، كان متحيزا للجيل الماضى كأفراد وللحاضر كفلسفة . وبدا معجبا بمهنته راضيا عنها رغم ما تقتضيه من جهد متواصل ، ثم أخذ يروى عجبا من القضايا التى صادفته .

ـــ أنت كنت الأول علينا دائما !

ـــ وكنت أول البكالوريا فى القطر كله ..

ففكر مليا ، ثم قال :

ـــ أرى فى وجهك صفاء غريبا رغم كل شىء !

ـــ رغم ماذا ؟

فقال برقة :

ـــ ان من يحكم بالاعدام على انسان ..

فقاطعه بتوكيد :

ـــ ما دمت مرتاح الضمير فانى لا أعرف للقلق معنى ..

ـــ الحق ان صفاءك غير عادى !

فضحك عاليا وهو يقول :

ـــ اعتبرنى من الصوفية اذا شئت !

فتجلت الدهشة فى عينى حسين وتوثب الى مزيد من المعرفة ولكن سرعان ما بدا على الآخر ما يشبه الندم على ما فرط منه وأبى أن يزيد كلمة واحدة .

ـــ يبدو أن عملكم شاق حقا .

ـ حياتنا تفنى بين أوراق القضايا ..

واضح جدا أنه مرهق بالعمل ، كما كان وهو طالب ، رهينة نبيلة وكفاح متصل وثمانية أولاد وتصوف !

ـ مع ذلك يرى الموظفون فى كادر القضاء جنة النعيم !

فقال مبتسما :

ـ لنا الجنة !

وعرض عليه الصورة المدرسية فنظر فيها باهتمام ، فأشار حسين الى حامد زهران متسائلا :

ـ ألا تذكر هذا الطالب ؟

ـ كلا ..

ـ حامد زهران ، من ساقطى البكالوريا ، مدير شركة ، ٥٠٠ ج. م. شهريا .

فحملق فى الصورة كأنما يحملق فى طبق طائر ، فقال حسين :

ـ ظننت الخبر لا يهز الصوفى !

وانطلقا معا يضحكان . وسأله عمن يعرف فى الصورة من زملاء الدراسة فجرى ببصره عليها ثم وضع أصبعه على وجه فى الصف الثانى وهو يقول :

ـ محمد عبد السلام ، كاتب بالنيابة ، وعمل معى أول عهدى بالخدمة فى أبو تيج ولا أدرى الآن عنه شيئا ..

واضطر الى السفر الى المنيا ليقابل محمد عبد السلام فى مقر عمله الأخير . بدا له أكبر من سنه بعشرة أعوام على الأقل ، ووجد فى هيئته الرثة وشعره الأبيض الأشعث وثنيتيه المفقودتين

ما يذكر بالخرابات . ولم يتذكره الرجل ولم يقتنع بدعواه حتى أطلعه على الصورة القديمة . وجلسا فى حجرة استقبال سائبة المفاصل فى شقة قديمة مكتظة بالذرية .

— لا أعرف أحدا فى هذه الصــورة ، طول مدة خدمتى وأنا أتنقل من بلد الى بلد ..

ووجد حسين فى قلبه نغز ألم ، وشــعر نحو الرجل برثاء واحترام عميقين . وسأله عن درجته فقال :

— الدرجة الخامسة منذ عام ، اكتب هــذا يا أســتاذ ، ويا حبذا لو تنشر صورتى مع الأولاد ، ست بنات وأربعــة أولاد ، ما رأيك ؟ ، أليس من الجائز أن يكون الله قد أرسلك لى فرجا بعد الشدة ؟ !

ووعده بكل خير ! . واستدرجه للحديث عن ذكريات العمل، ورجاه أن يكتب له بالتفصيل ميزانية أسرته فى عام مثــلا . وأشار الى صورة حامد زهران قائلا :

— هذا الزميل القديم يتقاضى اليوم ٥٠٠ ج. م. شهريا .

فذهل الرجل حتى خيل اليه أن وجهه ازداد شــحوبا ، وتســاءل :

— ماذا يعمل ؟

— مدير شركة .

— لكن الوزير لا يقبض نصف هذا القدر !

— هذا شىء وذاك شىء ..

فتساءل فى دهشة :

— كيف وفيم ينفقها ؟

فابتسم حسين ولم يجب فسأله الآخر :

— وما شهادته ؟

— الكفاءة !

— يا خبر أسود ، أنت تمزح ..

— كلا ، العبرة ليست بالشهادة ..

— العبرة بماذا ؟ ، دلني كيف يصل انسان الى هذا الحظ ؟.. ها هو يقف معى فى صف واحد فى الصورة فخبرنى كيف بلغ هذه المرتبة ؟ !

فقال ملاطفا :

— هنالك شىء اسمه الحظ ..

فهز الآخر رأسه فى حزن وقال بيقين :

— لا يوجد عمل فى بلادنا يستحق هذا القدر من المال ، والا فلماذا لم نصل الى القمر ؟

وضحك حسين قائلا :

— على أى حال أنتم أحسن حالا من الملايين ..

فقال محتجا :

— الملايين ! ، أنا عارف هذا ، ولكن حامد زهران هو المشكلة ..

ولم يجد صعوبة فى الاتفاق على مقـابلة مع جاره القديم حامد زهران . ولما كانت الشركة ليست بالمكان المناسب للمقابلة الحرة فقد دعاه الى مسكنه بالدقى . وتطلع حسين الى الڤيللا

القائمة فى أحضان الصفصاف باعجاب ، وسرعان ما ذكرته بقصر عباس الماوردى فى عزبة قليوب ، الهندسة الرائعة والحديقة السابغة وأنفاس العز العطرية . ترى أى صورة يتراءى فيها اليوم ذلك الجار القديم ؟ .. فانه لا يحتفظ منه الا بالعود النحيل والوجه الشاحب ، العابث فى ضحكه ، شبه الجائع ، وهى صورة لا تتلاءم بحال مع هذه الفيللا المثيرة . الله يرحم أيام زمان يا حامد ، أيام الشلن تقترضه بشتى الحيل ولا ترده ولا بالطبل البلدى ، ليت الزمن لم يفرق بيننا ، اذن لرأيت عن كثب كيف تقع هذه الزلازل البشرية ! .

— أهلا حسين ، أين أنت يا رجل ؟

كان فى كامل زيه كالكبراء فى بيوتهم ، وكان الصالون يخطف الأبصار بالأضواء والمرايا والتحف ، أما هو فقد اخضر عوده وجرى فيه ماء الحياة .

— أنا أحتج على هذه الزيارة النفعية ، كان يجب أن يكون هذا البيت بيتك ، حتى التهنئة الواجبة لم أتلقها منك فى حينها !

وارتبك حسين قليلا لكنه قال بلباقة :

— لن يشفع لى عذر ! .. لذلك أطلب العفو ..

وضحك حامد قانعا . ونسيا فى حديث الذكريات الحاضر وقتا غير قصير ، ثم تحفز الصحفى للعمل . وتجنب حسين الأسئلة التى قد يشتم فيها تعريض أو سخرية قاصرا تحرياته على النجاح وكيف تيسر له ، وعن سياسته فى الشركة وآرائه فى جيله الخ ..

كانت تربطنى بالمدير السابق علاقة العمل قبل أن يتولى ادارة الشركة فاختارنى سكرتيرا له ثم مديرا لمكتبه ، فهو قد اختارنى عن خبرة سابقة ..

خبرة سابقة ! . الحق انك فتحت بيتك القديم نادى قمار للسادة من رؤسـائك ، نادى قمار وغرزة أيضـا ، ولكن من المقطوع به أنك ذكى نهاز للفرص !

ـ وفى مدة خدمتى فى مكتبه درست كل كبيرة وصغيرة مما يتصل بالعمل ، وتعرفت على جميع الكبار من المتعاملين مع الشركة ..

ـ فى هـذا يوجد الفـرق بين العبقرى والعـادى من السكرتيرين ..

ـ ومديرى هو الذى رشحنى للوظيفة عند نقله منها الى الخارج ..

ـ نعم الترشيح ! ، ولكن ما هى السياسـة التى رسمتها للمستقبل ؟

وأفاض فى الحديث عن ذلك بثقة واعتداد ، ودوّن الآخر خلاصة وافية للكلام وهو يراقبه عن كثب ، ويسجل فى ذاكرته حركاته وسكناته ، وعندما انتهى التحقيق قام زهران وقال وهو يتجه الى الداخل :

ـ انتظر حتى أقدمك الى زوجتى ...

آه .. فايقة ! .. الجارة القديمة ! .. ترى كيف أصبحت اليوم ؟ ! . تزوجها زهران أيام التلمذة وكان جارا لأبيهـا عم



سلامة سائق الترام . ترى كيف تتبدى اليوم فى هذه الڤيللا ؟ !

ورجع حامد زهران يسير بين يدى فتاة فى العشرين ، حلية براقة ، ووجه مستعار السمات من الشرق والغرب . رباه أهى زوجة جديدة !

وتم التعارف ، وجرى الحديث بالانجليزية أكثر الوقت ، وكانت المباهاة تصرخ فى وجه زهران الضــاحك . ولكن أين فايقة ؟ .. ماتت أم طلقت ؟ !

لم تكن الصورة لتتم حتى يتأكد من هذه النقطة . ومضى من توه الى عطفة الكرمانى بباب الشــعرية ، الى مسكن عم سلامة القديم . وفى أول العطفــة علم من كواء بلدى بأن عم سلامة توفى من سنوات ، وأن ابنته فايقة فاتحة دكان سجائر وحلوى أسفل البيت . واقترب من البيت منفعل الصدر وهو يحاذر أن تراه حتى وقع عليها بصره وهى جالسة وراء الطاولة لا يبدو منها سوى وجهها وعنقها . وكانت تدخن سيجارة وقد بدا وجهها أكبر من سنه بعشر سنوات على الأقل كوجه محمد عبد السلام كاتب نيابة المنيا . بدت شــاردة الطرف متجهمة ومستسلمة للمقادر . وتذكر كم كانت مثالا للصــبر والحيوية والأمل فشعر بأن أنبل ما فى صدره ينحنى لها رثاء واحتراما ..

وغادر عطفة الكرمانى ضيق الصدر بعكارة الجو . ومضى يفكر فيما جمع من مواد لدراسته ويحللها تحليــلا أوليا وهو يتساءل :

— ترى أي معني ستتمخض عنه هذه الصورة القديمة ؟ !

# فهرس

صفحة

# مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

| | | الطبعة الأولى | | |
|---|---|---|---|---|
| مصر القديمة | ( مترجم عن الانجليزية ) | ١٩٣٢ | | |
| همس الجنون | مجموعة أقاصيص | ١٩٣٨ | الطبعة الرابعة | ١٩٦٣ |
| عبث الأقدار | قصة تاريخية | | | |
| رادوبيس | « « | ١٩٤٣ | « الخامسة | ١٩٦٤ |
| كفاح طيبة | « « | ١٩٤٤ | « « | ١٩٦٤ |
| القاهرة الجديدة | | ١٩٤٥ | « « | ١٩٦٢ |
| خان الخليلي | | ١٩٤٦ | « السادسة | ١٩٦٥ |
| زقاق المدق | | ١٩٤٧ | « السادسة | ١٩٦٥ |
| السراب | | ١٩٤٨ | « الرابعة | ١٩٦٣ |
| بداية ونهاية | | ١٩٤٩ | « السادسة | ١٩٦٥ |
| بين القصرين | | ١٩٥٦ | « الخامسة | ١٩٦٤ |
| قصر الشوق | | ١٩٥٧ | « « | ١٩٦٢ |
| السكرية | | ١٩٥٧ | « « | ١٩٦٤ |
| اللص والكلاب | | ١٩٦١ | « الثالثة | ١٩٦٤ |
| السمان والخريف | | ١٩٦٢ | « « | ١٩٦٥ |
| دنيا الله | قصص قصيرة | ١٩٦٣ | | |
| الطريق | رواية | ١٩٦٤ | « الثانية | ١٩٦٥ |
| بيت سيىء السمعة | قصص قصيرة | ١٩٦٥ | | |
| الشحاذ | رواية | ١٩٦٥ | | |
| ثرثرة فوق النيل | « | ١٩٦٦ | | |

**تحت الطبع :**

أولاد حارتنا — رواية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة




الثمن ٢٥ قرشا

دار مصر للطباعة